
قصص
تميم هنيدي
ليشيوم

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

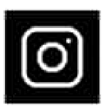
تابعونا على



Almutawassitit@



منشورات المتوسط



Almutawassit

إلى جمانة القباني..

خاتمة ضرورية

حدث منذ عشرة أعوام أن كنتُ شاهداً على تغيّرٍ مفاجئ في حياة إحدى الصديقات. لاحظتُ ابتعادها، ثمّ انعزالها التام، فاختفاءها أسابيع طوال؛ ليصبح التواصل معها مستحيلاً بشتى الوسائل. هكذا إذنْ ودون أي مقدمات لم تعد موجودة في حياة الكثيرين. لم أفهم السبب، بالرغم من أنهم قالوا آنذاك إنه "اكتئابٌ حادّ". لم يكن الاكتئاب في مفهومي الخاصّ سوى "مزاج سيّئ" قابل للسيطرة، فيما لو كان الشخص قوياً ومتماسكاً. انتظرتُها قليلاً، ثمّ مضيتُ دونما التفات إلى الوراء. ابتعدتْ، وغرقتُ في صخب الحياة مجدّداً. علمتُ لاحقاً أنها تعاني ممّا يُعرف بـ "الاضطراب الوجداني ثنائي القطب" أو "Bi Polar Disorder"، وأذكر أنني أيضاً لم أكترث، فكان هذا الأخير مبهماً تماماً، بالنسبة لي، ولم أعرف إن كان هناك أساساً ما قد يبرّر اختفاءها الطويل الذي بدا، وكأنه لا يتعدّى الـ"مزاجية" واللامبالاة.

مضتْ أعوام طوال حتى اصطدمتُ بهذا المرض مجدداً وجهاً لوجه، وبمحض الصدفة. وكان اللقاء الأخير هذا كافياً حتى أغوص في أعماق هذا العالم المثير للاهتمام. بحذرٍ، بدأتُ أربط الخيوط بعضها البعض، وأكتشفُ خفايا هذا الاضطراب وتفاصيله، بكثيرٍ من الاهتمام. علمتُ حينها أن للمرض وجهاً آخر معاكساً تماماً للاكتئاب الذي عرفتُه سابقاً. وهكذا أصبح الاسم: "ثنائي القطب" أكثر منطقية، بالنسبة لي.

تُقابَل الأمراض النفسية بالتهميش الذي يصل في الكثير من الدول حدّ الإهمال الذي يُسقط عنها صفة المرض. فيما يذوق الكثير من المرضى النفسيين - في عالم جاهلٍ بحالتهم - أشدّ أنواع الألم؛ ابتداءً بعزلهم في ظروف لا إنسانية، ومروراً بضربهم بصورة مبرحة؛ ليصل سوء المعاملة حدّ الإعدام في حالاتٍ محدّدة. ولهذا يعاني الكثير من المرضى حتّى اللحظة عزلةً اجتماعيةً، تكرّسها المفاهيم المغلوطة، والنظرة الدونية التي يُقابَلون بها؛ ليجد بعضهم نفسه فريسةً سهلة للمشعوذين والجَهَلَة. وبالرغم من أن التمييز بين مَرض النَّفس ومَرض الجسد ما يزال موضوعاً إشكالياً مطروحاً للنقاش على اتّساع العالم - ولا يخصّ منطقتنا وحدها – لكنْ؛ لا يمكن

إنكار المستوى المتقدم الذي وصل إليه الغرب في التعاطي مع هكذا نوع من الأمراض. الأمر لا يتوقّف عند حدّ الأبحاث الجامعية، والدراسات العلمية المستمرّة، والكتُب، والمقالات، والمواقع الطّبية الكثيرة والمتنوّعة فحسب، بل يمتدّ وصولاً لأن يتحدّث فيه المرضى عن أنفسهم على الملأ، وأمام الملايين من خلال كتُبٍ ومدوّنات إلكترونية، أو عبر وسائل التواصل الاجتماعي، مُتخذين بذلك كلّ القيود الاجتماعية، وآملين بإزالة "هالة الجهل" التي تحيط بحالتهم. عندها، يستطيع العالم أن يراهم - مهندسين وأطبّاءً وإداريين وعمّالاً وطلاباً - يتحدّثون عن جوانب مختلفة من أمراضهم، بحزنٍ وأسى أحياناً، وبسخرية لافتة في أحيانٍ أخرى. تراهم يقدّمون النصائح لمَن يحتاجها، كاسرين بذلك "تابو" الحديث عن الأمراض النفسية، باعتبارها وصمة عارٍ. هذا التواصل الذي يشمل عدداً ضخماً من المرضى، مع عشرات الآلاف من الداعمين والباحثين والمهتمّين، جعلني أشفق علينا، على مرضانا الذين يخجلون حتى من الحديث إلى عائلاتهم؛ ليقودهم الطريق المرسوم من قِبَل المجتمع إلى رجال الدين أو سبل أخرى، قد يلجأ إليها المريض، علّها تنسيه غرابة حالته المبهمة والمخيفة، كالمخدّرات وإدمان الكحول.

تحاول هذه المجموعة القصصية، ليثيوم، تسليط الضوء على المرض النفسي الذي تُعدّ التقلّبات المزاجية الحادّة أحد أهمّ سماته. هذا الاضطراب الذي يختبره الكثيرون، بصمتٍ تامّ، يحصد الأرواح كقاتل محترف، ويتلاعب بتفاصيل حياة المرضى والمقرّبين منهم، حتى يقلبها رأساً على عقب.

"ليثيوم" هي بطاقة تعريف بالمرض، بأسلوبٍ قصصي بعيدٍ عن التوعية الطّبيّة التقليدية. هي قصصٌ خرجت من مرارة الواقع، وحملت تفاصيل كثيرة من زوايا الذاكرة المظلمة للمرضى وذويهم. هي رحلة نخوضها معاً، وندخل من خلالها إلى عالمٍ يعيش فيه الملايين، مقفلين فيه الباب على معاناتهم مخافة أن تجلب العار والسمعة السيئة.

الاضطراب الوجداني ثنائي القطب .. مرض التقلّبات

الاضطراب الوجداني ثنائي القطب (يُعرَف أيضاً بذهان الهوس الاكتئابي) مرض نفسي، ينقل المريض فيه بين حالات حادّة من التقلّبات المزاجية التي تأتي على شكل نوبات من الاكتئاب (depression) والفرح الهَوَسي (mania). هذه النوبات التي قد تمتدّ إلى أسابيع أو أشهر، تختلف

حدّتها من شخص إلى آخر، لكنها تتسم بفرادتها التي تميّزها عن التقلّبات المزاجية التي يختبرها معظم الناس. فهي حادّة، ومفاجئة،لا تتناسب كُلّياً مع الواقع. يمتدّ تأثير هذه التقلّبات إلى جوانب أخرى كثيرة في حياة المرضى؛ كالطاقة، والنشاط، والعلاقات، والمشاعر، والقدرة على التركيز، والقيام بالمهامّ اليومية. أما بين النوبات؛ فغالباً ما يكون الشخص في حالةٍ شبه عادية؛ بحيث يصعب فيها التكهّن بوجود المرض، إذا ما أراد صاحبه إخفاءه. يُعدّ الاضطراب الوجداني ثنائي القطب خطيراً للغاية، إذا ما تُرك دون علاج؛ إذ يمكن أن تصل نسبة المنتحرين بسببه إلى ١٥٪ من المرضى. فيما تشير معظم الدراسات إلى أن نسبة مَن حاولوا الانتحار لمرّة واحدة على الأقلّ تتعدى الـ ٥٠٪، هذا وتذكر منظّمة الصحة العالمية أن حوالي ستين مليون إنسان حول العالم يعانون من الاضطراب ثنائي القطب. ارتبط هذا المرض بالكثير من الأسماء الكبيرة فنياً وأدبياً وتاريخياً، ما كان دافعاً إضافياً لإجراء دراسات عديدة، بحثت في علاقته مع الإبداع والتميز. ومن الأسماء التي عانت من الاضطراب الوجداني ثنائي القطب: السير ونستن تشرشل، الكاتب أرنست همنغواي، الرسام فنسنت فان غوخ، الموسيقي روبيرت شومان، الكاتبة فرجينيا وولف، وغيرهم كُثُر. أما حديثاً؛ فتُعدّ الممثلة كاثرين زيتا جونز من أوائل المشاهير الذين تحدّثوا عن مرضهم إلى الإعلام، كما فعل ذلك أيضاً الكوميدي البريطاني الشهير ستيفن فري، والذي أنجز فيلماً وثائقياً رائعاً عن مرضه بعنوان (The secret life of the manic depressive). حتّى اللحظة، لا يُعرَف سبب الإصابة المباشر بالاضطراب ثنائي القطب، لكن الكثير من العلماء يُجمعون على وجود عدّة عوامل، أهمّها العامل الوراثي الجيني.

من المفيد معرفة قابلية المرض للسيطرة دوائياً وعلاجياً، إلى حدّ كبير، ويستطيع مَن يعانون منه عيش حياة ناجحة ومثمرة، عبر الالتزام بأدوية محدّدة، تعمل كمثبّتات للمزاج، وتخفّف من حدّة النوبات، كما تباعد بينها، وتقلّل من الأعراض المرافقة للمرض عند البعض كنوبات الهلع على سبيل المثال. ويشكّل العلاج أحد التحدّيات المهمّة والصعبة في حياة المرضى، نظراً لصعوبة الالتزام بالأدوية لفترات طويلة، لما تُسبّبه من أعراضٍ جانبية مرهقة.

الوجهان: الأول..أو الثاني

الاكتئاب، وهو الوجه المظلم للاضطراب. يمثّل القاع القاتم الذي يصعب الخروج منه. هو لا يشبه الشعور بالحزن، أو انخفاض الطاقة الذي يصيب

معظم الناس بين الحين والآخر، بل يتعدّى ذلك؛ ليكون حالة مفرطة عميقة ومؤلمة، يسيطر عليها الحزن والأسى المترافقين بالإحساس بالذنب والإرهاق. يفقد الذين يعانون الاكتئاب القدرة على رؤية الجوانب الإيجابية في الحياة، ويفقدون أيضاً المتعة في ما كان مصدراً لها في السابق مثل الجنس، أو اللعب، أو الهوايات المتعدّدة. يترافق هذا مع الرغبة بالانعزال التام؛ لتصبح المهمات اليومية الاعتيادية غايةً في الصعوبة؛ بحيث يغدو مجرّد القيام بها تحدٍ، لا يقوى على إنجازه الكثيرون. تنخفض ثقة المكتئبين بأنفسهم بشكل حاد، وفي حالاتٍ معينة - إذا ما استمرّ المريض دون علاج - يكون الانتحار هو الخيار الوحيد للكثيرين، رغبةً بالخروج من دوّامة العذاب المستمرّ، والظلام القاتم.

في محاولة خاصة للغوص أكثر في كُنه الاكتئاب، قام الكاتب الأسترالي "داني بيكر" مؤلّف كتاب "الاكتئاب كاذب " بالطلب من متابعيه على وسائل التواصل الاجتماعي - ممّن عانوا من الاكتئاب سابقاً - كتابة وصفٍ مختصر للمرض؛ كي يتسنّى للجميع زيادة معرفتهم بهذه الحالة المعقّدة، التي يخفق كثيرون في فَهمها، معتبرين أن أصحابها يبالغون في المشاعر، أو يستجدون الاهتمام فحسب. وبالاعتماد على تفاعل الجمهور، نشر "داني بيكر" مقاله على موقع (huffpost)، واستعرض فيه أفضل خمسين جملة لوصف الاكتئاب، أكتفي - هنا - بذِكر خمسٍ منها:

1. تشعر وكأنكَ شبحٌ، لستَ جزءاً من هذا العالم.
2. الاكتئاب هو أن تكره نفسك، تكرهها كثيراً حتّى إنكَ لا تستطيع النظر في المرآة.
3. كالحياة في نفقٍ مظلم، لا ترى في آخره ضوءاً، لا ترى شيئاً، ويصعب عليكَ التنفّس، وتعلم حقاً أنك باقٍ فيه للأبد.
4. يزيد ألماً عن أقسى أنواع الألم الجسدي، ولا أحد يلاحظكَ.
5. هو أن تستيقظ في الصباح، وتتمنّى لو أنك متّ نائماً.

الوجه الثاني..أو الأوّل

مقابل الاكتئاب، هناك الجانب الآخر من المرض:

الهَوَس، الفَرَح الهوسي، أو ما يُعرَف أيضاً بالابتهاج غير الطبيعي. وهو الشكل الآخر للنوبات التي يعاني منها مرضى الاضطراب الوجداني ثنائي القطب، هنا يشعر الشخص بزيادة ملحوظة في الحيوية والإنتاجية، والسعادة المفرطة، والأمل، والتفاؤل، والنشاط، فيما يختبر البعض زيادةً في الرغبة والطاقة الجنسية. هنا كلّ شيءٍ يبدو ممكناً، لا مستحيلات، حتى إن الحياة تبدو أقصر من المشاريع والخطط القابلة للتطبيق. يصبح الأشخاص في أثناء نوبات الهَوَس أكثر اندفاعاً، ما يؤدّي إلى زيادة ملحوظة في الإنفاق الماديّ، على سبيل المثال، كما يصبحون أكثر قدرة على الاستمتاع والضحك والقيام بالنشاطات؛ بحيث يغدون ممتعين لمَن حولهم. تتفاوت درجات حدّة الهَوَس، فمنها الخفيف (hypomania)، والتي تُعدّ الحالة المثالية؛ حيث تزداد الإنتاجية والسعادة والنشاط، إلى جانب الإبداع والثقة. يصبح البعض أكثر عرضة للانفعال والغضب أيضاً، لكنْ؛ دون أعراض حادّة مثل الهلوسة، أو القيام بتصرّفات خطيرة، وغير آمنة. أما الدرجات العالية (mania)؛ فقد تشكّل أحياناً تهديداً لسلامة الشخص وحالته الماديّة والاجتماعية، وغالباً ما ينتهي الأمر، بمَن يمرّ بهكذا نوبات حادّة، في المستشفى. تترافق هذه المرحلة مع احتمال القيام بأعمال طائشة ومغامرات، تعرّض صاحبها للخطر، أو تصرفات تسبّب الحرج الاجتماعي الشديد. يُعرَف عن الحالات القصوى من نوبات الهَوَس ترافُقُها مع الهلوسات السمعية والبصرية؛ أي أن الشخص يسمع ويرى بوضوح أشياء غير موجودة، لا يراها أحد سواه. في نوبات الهَوَس، تتضخّم الأنا، بشكل كبير، وتترسّخ معتقدات غير واقعية يعتقد بموجبها المريض أنه يحمل رسالة مهمة للبشرية، أو يمتلك قدرات خارقة. وهكذا، ينفصل الشخص عن الواقع، ويصبح في حالة، أصرّت الطبيبة النفسية والكاتبة الرائعة كي جاميسون (مريضة الاضطراب ثنائي القطب) بأن تسفيها "جنون"، بينما رفض أطباء آخرون بقوّة هذه التسمية. ومن ضمن أبرز أعراض نوبات الهَوَس: الانخفاض

الملحوظ في عدد ساعات النوم اليومية (قد تكون ثلاثة ساعات كافية)، وتسارع الأفكار وتشعّبها، والحديث بسرعة ملحوظة، والأفعال غير المنضبطة، وفرط في السعادة والحيوية والأمل، والتصرّفات المائلة للعدوانية أحياناً، والزيادة الملحوظة في الثقة بالنفس.

جاءت تسمية الكتاب: ليثيوم، تيمّناً بالدواء الأقدم والأشهر في علاج التقلّبات المزاجية الحادة، حتى إنه يقال إن الإغريقيين القدماء استعملوا مغاطس من ملح الليثيوم لتهدئة مَن عانوا آنذاك من تقلّبات مزاجية. ولكن؛ وحينما يتعلّق الأمر بالاضطراب الوجداني ثنائي القطب يمكن القول إن الليثيوم هو الدواء المكروه والمحبوب، في آنٍ واحد. ذلك أن الكثيرين يهاجمونه نتيجة أعراضه الجانبية المرهقة، فيما يميل آخرون إلى رفضه، بصورةٍ قاطعة، بالرغم من إثبات فعاليّته، ومداومة الأطبّاء على وصفه بشكل شبه دائم. لكنّ الضجّة الأساسية حول الليثيوم سببها اعتقاد البعض أنه يجرّد متعاطيه من الانفعالات الطبيعية والمشاعر. نعم، هو - ربّما - يحميهم من فقدان السيطرة، لكنّه - في المقابل - يجرّدهم ممّا يعدّه البعض أكثر أهمّيّة؛ الإحساس. هذا الطرح، حتى اللحظة يواجه الكثير من المؤيّدين والمعارضين، من المختصّين، ومن المرضى أنفسهم.

كلمة أخيرة..

قد يكون عالمنا الذي شيّدناه منذ أجيال - انطلاقاً من مفهومنا الخاص عمّا هو طبيعي أو شاذ - صحيح أو خاطئ، بحاجةٍ إلى هزّة قوية، تُعيد ترتيب المفاهيم، وتُزعزع مضمونها، علّنا بذلك نفسح المجال للحياة بأن تتسع لكلّ اختلافاتنا وتنوّعنا. فالأمراض النفسية ما تزال خارج حدود المألوف، تُعامَل بتمييزٍ غير مبرّر مقارنة بالأمراض الأخرى، كأمراض القلب، والسّكّري مثلاً؛ بحيث تبقى محاطة دوماً بغيوم من المفاهيم والاعتقادات الخاطئة أو المُلفّقة. وبالرغم من أن تطوّر العلم والجهد الجبّار المبذول في الأبحاث قد ساهم كثيراً في معرفة

المزيد عن هذه الأمراض وسُبُل علاجها والسيطرة عليها، لكنْ؛ بقي الجانب الاجتماعي شبه مُهمَّشٍ خصوصاً في شرقنا المتوسط. من الموجع حقاً معرفة أن أكثر من ٩٠٪ من المنتحرين حول العالم كانوا يعانون من أمراضٍ نفسية سهلة السيطرة أو العلاج، فيما لو تمَّ تشخيصها. ما يعني أن إنقاذ حياة الملايين لم يكن يتطلَّب بداية سوى زيارة إلى الطبيب، أو الاستشاري النفسي. وهي زيارة يعدّها كثيرون - حتى الآن - مخجلة ومهينة، ما يضعنا جميعاً أمام المسؤولية المشتركة في نشر الوعي، وتكريس قبول فكرة الاستشارات النفسية، أو العلاج النفسي.

وبدورها، تجسّد هذه المجموعة إحدى المحاولات القليلة جداً لمقاربة هذا المرض بطريقة أدبية، وذلك كفيلٌ بأن يكون مبعثاً للفخر والقلق، في آنٍ واحد، فهذه القصص لم تعد ملكاً لأصحابها، أو لكاتبها. هي - الآن - بين أيديكم، تقلّبونها، وتبدون فيها الآراء المختلفة. وأنا، أنتظر في الخفاء، عاجزاً صامتاً، بعدما كنتُ حتى فترة قريبة الشخص الذي يتحكّم في كلّ التفاصيل؛ يحبّ شخصية هنا، ويكره أخرى هناك، ويضع قصّةً أمام أخرى، وكلمةً مكان كلمة.

كثيرة كانت تلك المرّات التي جلستُ فيها أرنو إلى اللاشيء مقتنعاً في صميم روحي أن هذا الكتاب لن يرى النور، أو أن هذه الصفحات التي كُتِبت على مدى أشهر، بعد الدراسة، والبحث، ومقابلة الأطبّاء، والمرضى،سوف تبقى حبيسة ذاكرتي، ولا شيء سواها. قرّرتُ عدّة مرّات العزوف عن الفكرة، لكنني لم أستطع. كان ثمّة ما يدفعني للمضي قُدماً لإتمام ما أراه - الآن - كتاباً مكتملاً، أتمنى أن يكون دافعاً للقراءة الإضافية والموسعة عن الاضطراب الوجداني ثنائي القطب، والأمراض النفسية عموماً. كلّي أمل بأن تكون "ليثيوم" محفّزاً لنشر الوعي والتفهّم حول هذا النوع من الأمراض؛ كي يتسنّى لمَن وجدوا أنفسهم أسرى له، أن يمارسوا حقوقهم كاملةً دون إحراج، أو خجل، دون تمييز، أو محاربة.

٠٥/٠٥/٢٠١٦

الثور

بدأ عتمُ الليل يسرق ما تبقى من بقايا الضوء، وخفَ ضجيجُ المدينة تدريجياً، وخرجت كلاب الشوارع الجربى؛ لتنتشر في كلّ أرجاء المدينة استعداداً لحلول الظلام. في مثل هذا الوقت، يزحف الموظّفون نحو بيوتهم، كما لو أنهم رجالُ آليون. "العودة الجماعية" تلك هي المرحلة الأخيرة من يوم المدينة، فسرعان ما ستتدلّى كروش الرجال على الآرائك أمام نشرات الأخبار، وتغدو النساء جُثثاً هامدةً، يتصفّحنَ صفحات الإنترنت بترقّب غير مفهوم. أما الأطفال؛ فسيبقون مصدر طاقة لا منتهية، كما هو حالهم في كلّ أصقاع الأرض.

في مثل هذا الوقت، عادة ما يكون عمّال المستودع غارقين بين الكُتُب والصناديق. يصرخون على بعضهم، ويتبادلون الشتائم، ثمّ - وبشكل لا إرادي - يضحكون بصخب. تُقدّم المطبعة العملاقة خدمات الطباعة والتخزين لعددٍ كبير من دُور النشر داخل البلاد وخارجها. في هذا الوقت من العام، يملأ العمّالُ الشاحنات بآلاف الكُتُب يومياً؛ لتمضي في اتجاهات مختلفة عبر البلاد. قاربت الساعة الثامنة مساءً، تساقط العمّال نياماً الواحد تلو الآخر. فقد بقي على موعد انطلاق الشاحنة إحدى عشرة ساعة، لذا؛ توجّب على الجميع نيل قسطٍ من الراحة حتى يستطيعوا الاستيقاظ في الرابعة فجراً؛ لإكمال العمل. نام الجميع، باستثناء "حمدي"، الشاب النحيل الملقب بالثور، الذي ظلّ صاحياً.

استحقّ حمدي لقبه هذا لقدرته على العمل دون توقّف، ناله عن جدارةٍ، فحين ينتهي من عمله، كان ينقضّ كنسرٍ على عمل غيره. آخر مَن ينام، وأوّل مَن يستيقظ، قليل الكلام والطعام والأدب، سريع الغضب، عيناه نافرتان إلى الأمام، وشعره أملسُ، يغطّي حاجبيه. حمدي هذا يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، لم يُكمل دراسته لأسباب لا يعرفها أحدٌ سواه، توفي والده، وهو في سنّ الثامنة، وكبر مع والدته التي لطالما اقترن ذِكرُها بالكثير من الحكايا الغامضة والغريبة. قيل عنها الكثير، وأصبحت مصدراً للرعب حتى بين الأطفال، فلازمت منزلها، ولم تعد تخرج منه إلا للضرورة، وغالباً ما كانت تفعل ذلك حينما تنغمس المدينة في نومها العميق.

التحق حمدي بالمطبعة منذ شهرٍ، وسرعان ما أصبح محط أنظار الجميع، وبطل حكاياتهم. يحبه البعض، ويكرهه الآخرون، لكنه كان المُفضّل حتماً لدى "الأستاذ شوقي" نظراً للطاقة العظيمة التي يُظهرها، والتي لا تمتّ لجسده النحيل بأية صلة. تلك الليلة، نام الجميع، وبقي حمدي صامداً، يُصارع قطرات العَرَق المتساقطة من جسده، ويُحارب رداءة الطقس، وأمواج الشخير التي تصفعه بين الحين والآخر. لم يكن يرى تلك الليلة سوى صناديق الكُتُب المبعثرة في أرجاء المستودع. ينقلها الواحدة تلو الأخرى بسرعة مهولة. بدت عليه علامات السعادة، وحتى الراحة، بالرغم من أنه لم ينم منذ ساعاتٍ طوال. بدا وكأنه لا يكترث لأي شيء يحدث حوله، لا يكترث سوى لحقيقة أن الشاحنة البيضاء المركونة في الخارج لم تمتلئ بالكُتُب بعد.

استيقظ العمّال متأخّرين، على وقع إحساسٍ خانقٍ بضيق الوقت، لم يبقَ سوى القليل حتى يُطلّ "المعلّم"؛ ليودّع الشاحنة التي يُفترَض أن تكون امتلأت بالكُتُب. من العمّال من التقط نظّارته سريعاً،وآخر بدأ بركل النيام؛ ليستيقظوا، ويروا "المصيبة"بأنفسهم. تلاشت هذه الحالة من الهلع سريعاً على صوت الصيحات القادمة من الخارج؛ لتبشر بالمستحيل: "الثور البطل"، "الثور الوحش". خرج الجميع؛ ليروا حمدي جالساً القرفصاء على سقف الشاحنة المحملة بصناديق الكُتُب، بعد أن أنهى وحده نقل الطلبية كاملة. كان في الأعلى يدخّن سيجارةً رخيصة، ويلوّح للزملاء مع ابتسامةٍ، تكاد تمزّق شفتيه.

لم يتقاضَ حمدي أجراً أكثر من رفاقه في العمل، فباستثناء كلمات التشجيع التي كان يتلقاها من "الأستاذ شوقي"بين الحين والآخر، لم يكن نشاطه في العمل يعود عليه بأيّ مردودٍ يُذكَر. لم تعد النقود منذ مدّة تشكّل فارقاً في حياته، كان يتلقى أجراً يومياً، ويصرفه في ساعةٍ واحدة، لذا؛ لم يكترث. ظلّ سلوكه غير مفهومٍ للكثيرين من حوله، فبالرغم من حاجته الماسّة للمال، كان يصرف ما يجنيه أحياناً دونما اكتراث، يشتري طعاماً للجميع، أو يُقرض مَن يحتاج المال. وهكذا اعتاد أن يبذّر نقوده على أتفه الأسباب، وأقلّها أهمّية، متناسياً مهامّه العائلية، كالمعيل الوحيد لذلك البيت الذي بقي منعزلاً كسجن.

لم يكن حمدي - إذاً - يبذل كل ذلك الجهد طمعاً بالمزيد من المال، أو طلباً لاستحسان ربّ العمل، بدا كما لو أن هناك طاقةً متدفّقة، تعتمل في داخله، وتتوق للخروج.. كان يشعر بنفسه أشدّ خفّة وأكثر نشاطاً مع كل

صندوقٍ يحمله.

مشت الشاحنة في طريقها، لكنْ؛ لم يدم استرخاء العُقال طويلاً، فبعد مدّة سيطرت حالة من التوتّر على كلّ زوايا المكان؛ أكثر من مائة صندوق من الكُتُب يجب أن تُحمَل في الشاحنات في غضون بضع ساعات فقط؛كي تمضي في طريقها إلى دمشق. اجتمع كل العمّال، لكنْ؛ كان ينقصهم حمدي النحيل الذي يعادل نصفهم نشاطاً وطاقة. بحثوا عنه مطوّلاً دون جدوى، فبالرغم من أن بعض زملائه استشعروا تغيّراً في سلوكه مؤخّراً، لكن أحداً لم يعتقد أنه قد يرحل هكذا! انتظروه حتى فقدوا الأمل، حينها أكملوا نقل الكُتُب دون إضاعة المزيد من الوقت، أنهوا العمل متأخّرين، ونالوا نصيبهم من المعلّم، كما كان متوقّعاً.

حين تتالت الأيام دون ظهور حمدي، أو سماع خبرٍ عنه، أمَرَ"المعلم" بأن يذهب أحدهم إلى منزله. تقاذف العمّال المهمّة فيما بينهم حتى استقرّ القرار على "عمّار" بعد أن خسر تحدٍّ ما. إذنْ؛ سوف يذهب الأخير إلى البيت المشهور بالجنون، دون أية إشارة عمّا ينتظره في تلك البقعة المَنسية من المدينة. كانت العائلة غامضة للجميع، لا يعرف أحدٌ في القرية عدد أفرادها على وجه الدقّة، لكنّ معظمهم سمعَ عن حكايات "أمّ حمدي". قالوا عنها بأنها ممسوسة، روت عنها النساء قصصاً تثير المخاوف والريبة. قلنَ بأنهنّ - وحين باغتوها مرّةً بآياتٍ من القرآن - بدأت تنتفض بعنفٍ كحشرة تلفظ آخر أنفاسها. ثمّة عجوزٌ في القرية أكّدت أيضاً بأنها سمعتْها تتحدّث مرّة بصوتٍ خشن كصوت الرجال. لم يقرب بيتَهم أحدٌ منذ زمن، وها هو عمّار الآن يمشي بين شجر الصنوبر بحذر، متّجهاً إلى حيث لم يرغب أحدٌ بالذهاب. كان ينظر حوله متحضّراً؛ ليواجه أسوأ الاحتمالات. وحين اقترب من المنزل ذي الحديقة المزروعة بعناية، انحنى على الأرض، والتقط بعض الحجارة تحسّباً لمواجهةٍ مُحتملة. اقترب بحذرٍ، بدأت روائح الحبق والياسمين تشقّ طريقها نحو منخريه الواسعة، طرق على الباب طرقةً واحدة، لم يكن ينوي تكرارها. فتحت له امرأةٌ متوسطة الطول، وجهها مريحٌ كنسمة صباح، شعرها الأسود القصير ينسدل على كتفيها برفق، بشرتها بيضاء، وعيناها واسعتان صافيتان. كان جمالها أقسى من "الوحش"الذي ظنّه سيُطلّ من خلف الباب. لم تنتظر سؤاله، ففي اللحظة التي كان يرنو إلى شفتيها بشهوة ضبع، فتحتهما قائلةً إن "حمدي"نائمٌ منذ فترةٍ طويلة، وهو في حالٍ يرغب فيه بالبقاء وحيداً، ثمّ ختمتْ جملتها بـ "أنا أمّه". رجع عمّار خطوةً إلى الوراء، وكأنه اكتشف لُغماً تحت قدميه، بدأ

يمشي بخفَةٍ، ويهزُ رأسه، وهو ينظر في عينيها اللتين بدث عليهما ملامح الاستغراب والدهشة. تعثّر، فسقط أرضاً، لم يُبعد عينيه عنها رغم سقوطه، انتفض كالجمل، ومشى بسرعة، لم يركض، كان يمشي وحسب، ويتمتم بكلماتٍ غير مفهومة..

كاميرا المينيا

مرّت الدقائق ثقيلة، تفاصيل الغرفة كلها تشي بأن صمتاً خيم عليها منذ أيام طوال، لا شيء يبشّر بالحياة هنا، سوى خيوط دخانٍ متشابكةٍ منبعثةٍ من سيجارة مَنسية. في زاوية الغرفة كومةٌ من الملابس، اختلط فيها المتسخ بالنظيف. عددٌ هائلٌ من الجوارب متعدّدة الألوان. قمصانٌ وسراويل وأحذية وأحزمة، تشكّل مجتمعةً جبلاً عالياً من الأقمشة والجلود. على قمة الجبل تتربع كاميرا صغيرة من النوع الحديث. لم تُفتَح الستائر منذ مدّة، تنبعثُ من مكانٍ ما على الأرضية رائحةٌ نتنة، تضيعُ وتتداخلُ مع رائحةِ فودكا رخيصة. الوسائد مبعثرة في كلّ مكان، والتلفازُ مُغطى ببطانيةٍ بيضاء، كما لو أنهُ جثة. بجانب التلفازِ، قطعٌ من زجاجٍ محطّمٍ منثور، يختلطُ ببقعٍ من الدماء باهتة اللون. يبدو المكان كما ولو أنه قد شهد عراكاً بين مجموعة من الفيلة، وهُجِرَ بعدها فوراً. على آخر السرير، الذي يقع تحت الشبّاك المخنوق بالستائر المغلقة، يُطلّ ثنائيٌ من الأقدام الناعمة التي تحفُّ الفراش برفق، أقدامٌ صغيرةٌ بيضاء اللون، تعلوها سيقانٌ مشدودةٌ بعضلات صغيرة، تزيدهما أنوثة، ووركٌ واسعٌ منسابٌ برفقٍ تحت الخصر النحيل. الفتاة تضمّ شفتيها بحذرٍ؛ لتشرب ما تبقّى من سيجارتها، دون أن تتسبّب باحتراقهما. دخلتْ والدتها مجدّداً، تفحّصتْها بنظرة خاطفة، وسألت بلطف مبالغ به إن كانت "راما" ترغب بالطعام. وحين لم تصلها أيّ إجابة، اقتربتْ أكثر، وأمسكتْ بيد ابنتها، وقالت بخشوع: "اقترب موعد الدواء..حبيبتي". أجابتها بأن هزّت رأسها بخفّة، ونظرت في الاتجاه الآخر حتى خرجت الأمّ، وقد امتلكها القلق. ما إن خرجتْ حتى أطلّتْ برأسها مجدّداً؛ لتضيف: "هل بات مسموحاً أن أنظّف الغرفة الآن؟". ابتسمت لها راما، وفهمت الأمّ أن أفضل ما تقوم به الآن هو أن تخرج فقط.

ترمق راما جبلَ الملابس بنظرةٍ خاطفةٍ بين الحين والآخر، تنظر خفيةً، وكأنها تراقب شخصاً، ترغب ألا يلاحظها. استيقظتْ منذ وقتٍ قصير، لم تدر كم من الزمن انقضى وهي نائمة، ولم تهتمّ لذلك كثيراً. تدور عيناها بحركة آلية رتيبة كتلك التي تتحرّك فيها كاميرات المراقبة؛ لتمسح الغرفة

كاملةً. لكن عينيها تقفان دائماً قبل جبل الملابس بشبرٍ واحد، كما لو أنه يقع في زاويةٍ عصية على الرؤية.. قرّرت مجبرةً أن تهجر غرفتها، وتتوجّه إلى المطبخ. مشت ببطء غير عابئة بآثار المعركة التي عبرت بها. بدت باهتة اللون منكسرةً كأنٍ مُقعد على كرسيٍ متحرّك، تناولت بعض قطع الخبز، وأخذت تلوكها كطفلة مريضة، حتى لاحظت بأن عملية الأكل تفوق شعور الجوع ألماً، فتوقّفت. عادت إلى ساحة المعركة، تلك الغرفة الأشبه بقبوٍ مهجور.

أشعلت سيجارةً ثانية، وجلست القرفصاء على سريرها، تتأمّل الغرفة مجدّداً. لا شيء تغير؛ بقايا الزجاج، والظلام، ورائحة النوم، والفودكا، والتلفاز الجثة، وجبل الملابس والكاميرا، والوسائد. كلّ شيءٍ على حاله، هي - فقط - تغيّرت.

مرّت ساعةً كاملةً، وعيناها مفتوحتان، تحملقان باللاشيء. نهضت، وقد اتخذت قراراً ما، جرّت جسدها المُنهك بصعوبة، وهي تمشي نحو زاوية الغرفة، كمَن يُساق إلى حتفه. اتّجهت نحو جبل الملابس، وتناولت الكاميرا بيديها. متفاديةً الزجاج المنثور. أزاحت البطانية عن التلفاز، شغّلته، وعادت إلى سريرها. مرّت بضع دقائق، اتّجهت بوجهها منزوع الملامح نحو الشاشة، وانتظرت.

"مرحبا..أنا راما حامد ..حسناً.. قد لا أبدو بأحسن حالٍ، فلا تفزعوا، بعد ساعاتٍ من التفكير، قرّرتُ أن أسجّل هذا الفيديو؛ لتراه الأجيال من بعدي، هذه غرفتي، كما ترون؛ تلفازي القديم، وسريري هنا، وبقايا البيتزا.. حسناً حسناً هذا غرامي، الكرسي الملكي الشكل، هذا غرامي..وهذه الفودكا " هنا اقتربت من الكاميرا حتى اكتظّت الشاشة بنصف وجهها الأيسر، وقالت بصوتٍ صارخ: "بصحتك، يا أيها العالم الكلب".

ملأ صخب الفتاة التي تظهر على شاشة التلفزيون المكان، كانت تضحك بحماس، وتثرثر بجملٍ قصيرة. بدت وكأنها ترى تحت أكوام الثياب ما لا يراه أحدٌ غيرها.. انهمكت في العمل، كما لو أنها أخذت على عاتقها القيام بمهمةٍ مستحيلة، يتوقّف عليها مصير الكثيرين. شربت ذات الشعر الأسود جرعة من الفودكا، ووضعت الزجاجة جانباً. سُمع صوتٌ ينسلّ من خارج الغرفة، يرجوها أن تفتح الباب، لم تكترث، واستمرّت بالتسجيل.

من على سريرها، شاهدت راما الشريط بعينين مقتولتين، لا تشيان بحزنٍ أو فرح، وكأن هذه التي تضحك ملء السماء في الشاشة لا تمت لها

بأيِّ صلة. تلبس تلك الجميلة كنزةً طويلة الأكمام وسروالاً قصيراً أصفر اللون، وتتصارع التعابير على اتّساع مساحة وجهها، كما لو أن إيحاءات الوجه ألعابٌ نارية تنفجر في السماء بمائة لونٍ وصوت. غابت الفتاة عن كادر الكاميرا، وانهمكت في عمل ما، وظلّ يُسمع صوت أمّها خفيفاً وباهتاً: "راما، افتحي الباب...راما، افتحي الباب".

ظهرت راما فجأةً وسط الشاشة، وقالت بصوتٍ هادئ: "حسناً، أظنّ أن أحدهم يراقبني، لستُ خائفة"، وأسدلت بطّانيةً كبيرةً على شاشة التلفاز. اهتزّت الكاميرا قليلاً قبل أن يتمّ تثبيتها في مكانٍ معيّن؛ لتظهر مجدّداً، وقد حملت زجاجة الفودكا، وبدأت ترضع منها كطفلة رضيعة، ثمّ رمت الزجاجة أرضاً بقوّة؛ لتتحوّل إلى قطعٍ من الزجاج المنثور. صرخت صرخةً مدوّية إثرِ جرحٍ في يدها. لم تصوّر الكاميرا الحروق التي خلّفتها الفودكا في معدتها، ولم توثّق ذاك الشعور بألسنة اللهب التي تنتقل صعوداً وهبوطاً من أعلى الصدر حتّى قاع المعدة؛ حيث كانت أمعاؤها تعتصر بشكل هستيريّ.

كانت راما تنظر من مكانها إلى الصبية الصارخة على بُعد أمتار قليلة بنظرةٍ جامدةٍ. الصراخ يعلو في المشهد، ويترافق أحياناً مع ضحكاتٍ صاخبة، وكلمات غير مفهومة. بدأت تتحرّك بسرعة، ولم تعد تتوسّط الشاشة، تصرخ من الألم تارةً، وتنفجر بالضحك تارةً أخرى. تختفي من الكادر؛ لتعاود الظهور من إحدى الزوايا بصورةٍ مفاجئة. كان صوت تنفّسها يعلو، ويتسارع. شهقت راما، وكأنها علمت بما سوف يحدث على الشاشة بعد بضعة ثوانٍ، عدّلت جلستَها، ونظرت بترقّب، لم يمض الكثير من الوقت حتى سُمع دويّ قوي، دخلت بعده مجموعة من النساء بزيّ الشرطة، وهجمنَ من فورهنّ على الصبية داخل الشاشة؛ لتحضنها إحداهنّ بقوّة، ويبتعدن جميعاً عن كادر الكاميرا، ظلّت الأصوات واضحة وعالية في البداية، وبدأت تخفتُ بعد لحظات حتى اختفت نهائياً، وتلاشت الضجّة بلمح البصر. انتهى الصخب، وكأنه لم يكن. مرّت الدقائق، وبقي الصمت مطبقاً على المشهد. انتظرت راما عودة الصبية المجنونة إلى الشاشة، اشتاقتْ لضجيجها، فسكون الغرفة كاد يقتلها، شعرتْ بصدرها ينكمش حتى أصبح التنفّس شبه مستحيل. انتظرتْ كثيراً، لكن ذات الشعر المبعثر لم تعد.

أطفأت التلفاز، واستلقتْ على السرير مجدّداً. أشعلت سيجارة، مصّتها بهدوء، وجلستْ تُراقب تصارع حبال الدخان المنبعث منها، كيف يعانق

بعضها بعضاً، ثمَ تنفضُ الخيوط، وتتلاشى في فضاء الغرفة.

قصّة ياسمين حسن

في ووترلو، المدينة الباردة الصغيرة في أونتاريو، كندا، جلست "بروك"أمام التلفاز أواخر شهر أكتوبر، انتظرث أن يسحبها شيء ما من هذا العالم الداكن اللون الذي قذفتها إليه الأمواج مؤخراً.

جرائد اليوم لم تحمل خبراً إيجابياً واحداً؛ أزمة اقتصادية، وحوادث سطوٍ مبعثرة هنا وهناك، وجريمة قتل، وفضيحة عنصرية لأحد مقدّمي برامج الأخبار... كان منزلها ذو القرميد الأحمر يعبس في وجه طقس، يبدو وكأنه على وشك الهيجان. كان من الممكن أن تفكّر في أي شيء هذا اليوم، كان من الممكن ألا تفكّر بشيء أيضاً، لكنها جلست هناك تتذكّر "ياسمين حسن"، التي لم تتركها وشأنها منذ وقتٍ طويل..

***

١٩٧٥، دمشق

حينما كان العالم متأرجحاً بين تفاصيل نهاية حرب فيتنام وبداية الحرب اللبنانية التي استمرّت أكثر من خمسة عشر عاماً، وبينما كان السوريون - بدورهم - منغمسين في التطوّرات السياسية الحاصلة في بلادهم، وُلدت "ياسمين حسن"في حيّ كفر سوسة الدمشقي، لأبٍ يمضي جلّ وقته ملتصقاً بجهاز الراديو، وأمّ اشتهرت بالجمال. سنواتها الأولى لم تكن مختلفة عن سائر الأطفال، وُلدت؛ لتكون الابنة الوحيدة للسيد "وهيب حسن"، فعاشت دون أخوة أو أصدقاء، بقيت هكذا إلى أن حطّت في مرحلة المراهقة. وياسمين رقيقة الملامح ناعمة الصوت، ذكاؤها بدا واضحاً للجميع، لكن مشاعرها المفعمة وحساسيتها المفرطة أضافت صعوباتٍ عديدة في أثناء تربيتها، كما قالت أمّها بعد سنوات طويلة.

في بداية مراهقتها، استضافت ياسمين صديقاتها بشكلٍ شبه يومي، كانت تحدّثهنّ عن شتّى المواضيع، وتبتكر لهنّ النشاطات والألعاب الممتعة طوال النهار، حتّى يتساقطنَ نياماً واحدةً تلو الأخرى. وتبقى هي، ابنة الأربعة عشر عاماً، في حالة من الضياع والأرق حتّى تستيقظ إحداهنّ أخيراً؛ لتكون طوق نجاتها. كانت تبكي كلّما باغت موعد الرحيل الفتيات

الصغيرات، ترجوهنّ ألا يتركنَها وحيدة، وتبدأ جولةٌ من البكاء بعد رحيلهنّ، لا ينهيها سوى استسلام حبالها الصوتية، أو تدخّل السيد "وهيب"؛ ليضع حداً لهذا "الدلع". ظنّ الجميع أن ياسمين طفلة "عاطفية" وحسب، لم يعرف أحد - حتى هي - أن هذا كله ليس إلا بداية، لما سوف يسيطر على حياتها لوقت طويل.

خلال عامها ما قبل الأخير في المدرسة، وبينما كانت "ياسمين" مقبلة على الحياة بالشراهة المعروفة لمَن هم في آخر مراهقتهم، ظهرت في حياتها بعض التغيّرات التي لعبت دوراً مهماً في ما جعلها تصبح لاحقاً "ياسمين حسن" الامرأة. فالطفلة التي اشتكى والداها مراراً من صعوبة طبعها، سرعان ما غدا طبعها أصعب. هما انتظرا طفلتهما لتكبر حتى "تعقل"، لكنْ؛ بدا وكأن الوقت لا يزدها إلا جموحاً. ولأن التغيّرات في حياة الصبايا عادةً ما يلفّها الغموض، اكتفى والداها بالقدر الذي يعرفانه، وبقيت هي تراقب الضباب، وقد بدأ ينجلي عن جسدها رويداً رويداً، لتطلّ من بين السُحب البيضاء أنثى ساحرة، امتلكتْها الشهوة، وسيطر عليها الخيال. لم تعرف ياسمين متى بدأ هذا كلّه، ولا إن كانت هذي النيران المجنونة في أعماقها "طبيعية"، لكنها عرفت جيداً أن جسدها دلّها على طريق واضح للمتعة اللامنتهية. رغبتها الجنسية أصبحت بازدياد مستمرّ؛ فكثرت أحلامها، وشعرت بجسدها كتلة مشتعلة متفجّرة، حتى أمسى تجاهل هذه الرغبة المتدفّقة من شرايينها أمراً مستحيلاً. وهكذا وفي يومٍ صيفيّ من العام ١٩٩٢ وجدت ياسمين طريقاً سالكاً إلى نشوتها، كان هذا بمثابة قنبلة من السعادة التي تفجّرت في داخلها. ها هي تُطفئ النار دونما خجل أو عار، وحدها هي وجسدها النحيل، تستلقي على سريرها، وتسافر من كوكبٍ إلى آخر. كان من الممكن أن تشعر بأنها وجدت كنزاً حقيقياً، لو أنها - فقط - لم تلحظ بعد وقتٍ قليل بأنها لم تكتفِ، أو بالأحرى أنها لا تكتفي! وهكذا بقيت حبيسة جدرانها الأربعة حتى ظنّتْ والدتها بأنها واقعة في الحبّ، لا محالة..

في المدرسة، سرعان ما أصبحت ياسمين خبيرة الجنس الجريئة، تقصدها الفتيات الباحثات عن بعض النصائح؛ لتمطرهنّ بالمعلومات الشاملة. مع نهاية العام الدراسي، كانت نصف الفتيات في شعبتها يمارسنَ العادة السّرّيّة بمهارة، يهرّبنَ الصور والمجلات بحرفية لصوص، ويتحدّثنَ عن الجنس بسهولة، لم تكن معتادة في ذلك الوقت. وبينما كانت فتيات المدرسة يكتشفنَ أجسادهنّ أكثر فأكثر، ويبحثنَ عن طُرُقٍ جديدة للمتعة

في هذا الكوكب المجنون، كانت ياسمين تبحث عن مغامرة جديدة أكثر جنوناً، عن رحلة أبعد وأخطر وأكثر حميمية. أرادت شيئاً يفترس شهوتها، يلتهم رغبتها من غير رأفة. ولو أن هذا الشغف الهائل لم يأتِ ويقضّ مضجعها، لكنا سوف نشيخ دون أن نعرف "رامي الريّس"، أو نسمع عنه، ذاك الذي لن تنساه "ياسمين حسن" طيلة حياتها.

تمنّت ياسمين دائماً لو أنها امتلكت قصةً؛ كي ترويها عن هذا النجّار الشاب، أو مجموعة من الأحداث واللقطات الرومنسية التي أدّت مجتمعة لأن تفقد عذريّتها على المقعد الخلفي في سيارة ابن خاله. لكن ما حدث قد حدث دونما داعٍ لهكذا حكايات وتفاصيل. كان رامي يكبرها بستة أعوام، لم يحتمل وابل الابتسامات والضحكات، ثمّ الأحاديث الجنسية والتأوّهات الهاتفية. التقيا في أماكن كثيرة محاولين سرقة الوقت والقُبل: سطح العمارة، والسلالم، وفي المزارع القريبة، وخلف الجدران... كانت ياسمين الطرف المسيطر، بدت واثقة من كلّ خطوة تقوم بها، ودافعت مراراً عن قرارها في ممارسة الجنس. أما هو، الذي لم يحتضن منذ سنوات شيئاً سوى ألواح الخشب؛ بدا تائهاً كصرصورٍ صغيرٍ، وُجد وسط قاعة استقبالٍ ضخمة.

بات واضحاً أن ما بعد "يوم السيارة" كما أسمياه، لن يشبه ما قبله. بالنسبة لـ "رامي" كان الحاضر أبعد من أكثر أحلامه جمالاً وإثارة. بدت عليه علامات الحبّ بسرعة، وبذات الشكل الكلاسيكي الذي عرفناه في الأفلام القديمة؛ غمرته سعادة مفرطة، واستقرت فوقه سحابة، تمطر إيجابية. كما أنه بدا أكثر هدوءاً وسكينة من ذي قبل. أيقن حينها أن ما نقصه طيلة السنوات الفائتة كان الحبّ فقط، ولا شيء سواه.

من جهتها، شعرت ياسمين بصدق أنها تحبّ النجّار ذا الجسد المشدود كحبلٍ غليظ. لكنها لم تكن تحبه أيضاً. هو سؤالٌ طالما أرهقها: هل أحبّت "رامي الريّس"؟ أم أنها أحبّت الجنس فقط؟

كَبُرت رغبتها أكثر، كَبُرت كثيراً حتى تحوّلت من فأرٍ صغيرٍ مشاكس إلى أنثى جاموس. أخافها هذا الكمّ من الشهوة الذي لا يهدأ غليانه. كانت تمضي وقتاً طويلاً مع جسدها، ثمّ تنقضّ على رامي الذي بدأ يشعر بالعجز الجنسي، وهو في الرابعة والعشرين من عمره. بات من الواضح أن الأخير لم يعد بذات الاندفاع، حاول أن يجاري جموحها، وأخفق. شعر أن الجنس أصبح عبئاً ثقيلاً جاثماً على صدره. بدأ يتهرّب من هذه المهمة التي بدت

وكأنها تزداد صعوبة مع الوقت. وقبل أن يفكّر جدّياً في الانسحاب خجلاً من هذه العلاقة، اختفت ياسمين. هكذا ودون أية مقدّمات، لم تعد موجودة في حياته. اتّصل مراراً، ولم يجب سوى أحد والديها، وحين كان الوالدان يمضيان إلى عملهما، كان يتسلّق السلالم بلمح البصر، ويقف طارقاً بابها بحذر لص مبتدئ، هادئاً في البداية، ثمّ يزداد غضبه حتى يضرب الباب بكعب قدمه، لكن إجابةً واحدة لم تأته من الداخل. انتظرها أمام مدرستها على مدى أسبوع كامل دون جدوى، أهمل عمله كثيراً؛ حيث فضّل البقاء على عتبة الورشة بانتظار ظهورها، وأيضاً دون جدوى.

أمضى "رامي الريّس" أسوأ أيام حياته، اكتشف فيها معنى العزلة، عايش الحزن الذي لا يُشفى بمجرّد الحديث مع الأصدقاء، أو الإفراط في شرب الكحول. أمضى الليالي مجاهداً ألا يبكي حتى انفجر مرّةً، وناح، كأمّ تمسّد جسد ابنها المقتول غدراً. كان يدفن رأسه في الفراش لساعاتٍ طويلة، وحين يستيقظ يشعر بأصابعها تمسّد جبينه، وهي تحدّثه عن مواضيع شتى، لم يعرف منها إلا القليل. لم تكن ياسمين حبيبة عابرة، كانت حاضراً بطعم المستقبل. زار منزلها بخطوةٍ يائسة، كان من الممكن ألا تمرّ بسلام، لولا أن والدة ياسمين تفهّمت الموقف، طمأنته أن الأخيرة بخير، لكنها تفضّل العزلة، ثمّ طلبت منه ألا يطرق بابهم مجدّداً تفادياً لوقوع المشاكل. فعاد رامي إلى لياليه الموحشة، يفكّر بخطأ اقترفه دونما قصد، ولم يخطر في باله سوى "يوم السيارة" الذي تمنى - بكلّ صدق - لو أنه لم يكن.

بعد انقضاء أكثر من شهرين كاملين، عادت ياسمين للظهور الخجول، كانت تكتفي بإلقاء التحية على عشيقها السابق من بعيد؛ لتجدّد بذلك قتله في كلّ مرّة، حاول أن يقترب منها دون جدوى. تراجع أخيراً، ومضت هي في حياتها. كان من الممكن أن تُطفئ نار حقده بتفسيرٍ صغيرٍ عمّا حصل، كان باستطاعتها أن تقول الصدق، هكذا اعتقد. لكنها لم تفعل..وسرعان ما تحوّلت أشواقه إلى ألسنة لهب، والحبّ الذي استقرّ في روحه سابقاً، بدأ يأخذ مع تتابع الأيام شكلاً جديداً.

***

العام الأول في الجامعة كان نقطة تحوّل في حياة ياسمين، ليس فقط لأنه كان عامها الأخير هناك، بل أيضاً لأنه العام الذي عادت لها فيه رغباتها الجامحة المجنونة، وشهوتها اللامنتهية، وإحساسها بالجمال، والثقة

بالنفس، والطاقة..الكثير من الطاقة. وإذا ما كانت أمواج الرغبة تقاذفتها في السابق من مقطعٍ إباحيٍ لآخر، أصبحت الآن تقذفها من فراشٍ إلى آخر. بدأت رحلتها الجديدة مع "داني حدّاد"، كان صديقها منذ اليوم الأول، هادئ الملامح، ودوداً يعزف الجيتار. وهو أوّل مَن اكتشف أنها تملك صوتاً ساحراً، يشبه صوت "أسمهان". أنجزا بعض الأغاني سوياً بعد أن كتبت كلماتها ياسمين، وقدّماها في العديد من المطاعم والخمارات الدمشقية، أصبح لها أصدقاء ومعارف كُثر، علاقاتها باتت متشعبة، ما جعل داني مرتبكاً في مواجهة هذا الصخب كله. لم يكن عشيقها الجديد حنوناً مثل"رامي"، ولم يكن برجولته أيضاً، لكنه وقع في غرامها، وسرعان ما تحوّل إلى كلب حراسة، لا يتركها لحظة واحدة، لم يكن هذا حبّاً، بقدر ما كان خوفاً من الخيانة. لطالما شعر بأنها سوف تخونه يوماً ما.

و"ياسمين حسن" التي اعتادت التدخين بشراسة قبل دخول الجامعة، تعلّمت الآن تدخين الحشيش، والإفراط في شرب الكحول. حاول "داني" باجتهاد أن يجاري انفتاحها المتفجّر، لكنه أيقن سريعاً خطورة الطريق الذي تسلكه حبيبته، فوقف في وجهها كصخرةٍ بازلتية؛ منع عنها الحشيش، وتدخّل أيضاً بعدد سجائرها اليومية، كما أبقى على صديقين فقط من جيش أصدقائها، سمح لها برؤيتهما بين الحين والآخر. كثرت المشاكل، ووصلت حدّ الضرب عدّة مرّات. في هذه الفترة الصعبة، وبالتزامن مع كثرة اللغط حول ياسمين، ظهر"الحكيم". لم يكن "أسعد أبو ليلى" طبيباً أو حكيماً، وقد اكتسب لقبه هذا من خبرته الواسعة في تعاطي المخدّرات بكافة أنواعها المتوفّرة، وتوزيعه لأنواع محدّدة، يصعب الحصول عليها من أحدٍ سواه. اكتسب "الحكيم" اسماً مهماً، وعُرف بكونه متين العلاقات، وكثير المعارف. لطالما أحاطت به قصصٌ وحكايا، منها الصحيح، ومنها الملفّق؛ تقول إحداها إنه قام بخنق طفل في الثانية عشر من عمره حتى كاد يقتله أيام المدرسة؛ لأن الصغير سرق من محفظته ثلاث ليرات، قيل أيضاً إنه سُجن سابقاً لمحاولته حرق والدته.. "الحكيم" كان في الثلاثين من العمر، لا يمكن القول إنه وسيم، لكنه امتلك سِحر أصحاب النفوذ. في الليلة الأولى مارسا جنساً طويلاً، وبقيت ياسمين في شقّته حتى الصباح. تجاهلت "داني" تماماً، ومخافة أن يؤذيها الأخير في بيتها، قرّرت المكوث بعض الوقت في منزل الحكيم أسعد. الأيام الأولى في مكانها الجديد كانت ممتعة، الجنس كان جيداً، وليس كافياً، الطعام كان لذيذاً دوماً، التدخين، الضحك، الأفلام والمسرحيات والكثير الكثير من الكلام. علّمها "الحكيم"طريقةً جديدة أكثر حرفية في لفّ السجائر، وذات صباح، تركها

تستلذ بسيجارتها الوليدة، وخرج يقضي بعض الأعمال.

فور خروجه، رمت جسدها على الأريكة، امتصت سيجارتها، وراقبت تصارع خيوط الدخان في الهواء بسكون تامّ، كان السكون مخيفاً جداً، صمتٌ ثقيلٌ هبط على الغرفة فجأة. شعرت لأوّل مرّة منذ أيام بالحزن الشديد، بالإحباط الذي لم يكن غريباً عنها، ظهر "رامي الرئِس"وسط سحابة الدخان، كان وجهه شاحباً متعرّقاً غاضباً، وكأنه تابع أخبارها طيلة الفترة الماضية. لم تره منذ وقتٍ طويل، شعرتْ بالخوف، فاتجهت مسرعة إلى الحمام، وقفت أمام المرآة المربّعة الشكل، نظرتْ جيداً في عينيها، رأت لأوّل مرّة كم تشبه أمّها التي منعتْها من الرجوع إلى المنزل منذ أشهر. تعرّتْ تماماً، وظهرت بعض الجراح التي كانت قد تركت سابقاً تحت إبطيها. بكتْ كثيراً، بكتْ بشكلٍ أقرب للهستيريا، ثمّ تكوّرت في زاوية الحمام، ارتجف جسدها..ونامت.

في الليل، عاد "الحكيم"، ووجدها تدخّن سيجارةً، تثبت أنها لم تُتقن حرفية لفّ السجائر بعد، ابتسم، وطلب منها الجلوس بقربه. كان ودوداً بوجهٍ يقطر بالتفهم والحبّ. أمسك بيدها، وضغط عليها بقوّة وحنان، وقال بصوتٍ هادئ:

"كنتُ طفلاً خجولاً قليل الحركة، لم أكن "الحكيم" بعد، كنتُ الطفل الأشقر الذي يقول بصوتٍ ناعمٍ: "حاضر" كلّما ندهت المعلمة باسمه، وهي تتفقد الطلاب، كما لو أنهم في السجن. كلّ هذا تبدّل وأنا في الخامسة عشر من عمري، أو أكثر بقليل. فكما لو أنها لعنة؛ ذاك الصغير الذي كان يقول لمَن أسقط الحقيبة عن ظهره عنوةً "الله يسامحك"، أصبح سريع الاشتعال كمحطة وقود. أصبحتُ لاعب كرة قدم، وكرة سلّة. أمضيتُ ساعات في صالات البلياردو، كما رسمت الكثير من اللوحات..خسرتُ بعض الأصدقاء وربحتُ ضعف عددهم أصدقاء جُدُد، كنتُ سعيداً، كما لم أكن يوماً، واثقاً بأن هذا الشيء المشتعل ليس أنا، ليس "أسعد". لكن؛ هل يُعقل أن يذهب أحدنا إلى الطبيب؛ كي يشكو له فرط سعادته! ما دفعني إلى الطبيب، كانت أسابيع الظلام والحزن الشديد الذي أتت لاحقاً، أسابيعُ من اليقين بأن الحياة انتهت حقاً، وكلّ يومٍ أقضيه فيها بمثابة النزول إلى الملعب الأخضر، ولعب كرة القدم بعد الصافرة النهائية. هذا ما دفعني لأزور الطبيب، وهذه قصّة ثانية، لها تفاصيل كثيرة، لا أريد الحديث عنها الآن. أنا أحدّثك لغرضٍ آخر".

لم تلتفت ياسمين نحوه، لكنه كان واثقاً بأن كلامه سيطر عليها تماماً، أردف قائلاً:

" لستُ طبيباً؛ لأشخّص حالتك، لكنني مريض يرى الذي عاناه سابقاً، ولم يزل يعاني منه، متجسداً أمامه بهيئة صبية رقيقة وجميلة هذه المرّة. سوف تجدين أجوبةً كثيرة، أرهقك البحث عنها سنة بعد سنة، ستجدين الطريق الذي لطالما أضعتِ، وأنا سأساعدك؛ لنجد طبيباً".

صمت قليلاً، ثمّ قال :

" ألم تشعري يوماً بأنك تحتاجين للمساعدة ؟ "

رفضتْ ياسمين زيارة الطبيب بدايةً بداعي الخجل والخوف من المجهول. لم يضغط عليها "الحكيم"أبداً، بل بقي إلى جانبها، وألغى معظم عمله خارج البيت. علّمها الطبخ وتمارين التنفس؛ لتساعدها على الغناء بشكل أفضل، حدّثها عن طفولته مطوّلاً، وعن تحوّل "أسعد أبو ليلى" إلى "الحكيم"،أخبرها عن المرّات التي أوقف فيها العلاج، ثمّ عاد له، وصف شكل نوباته، وتحدّث باستفاضة عن دور العلاج في جعل حياته أكثر طبيعية.

كانت تربط ما يقول بتفاصيل كثيرة عايشتْها، تتدافع الذكريات أمامها حتى إنها غابتْ، وسافرتْ بعيداً في أثناء حديثه عدّة مرّات، ما أجبره على التوقّف وتغيير الموضوع. شرح لها عن دراسات تربط الاضطراب ثنائي القطب بزيادة حادّة في الرغبة والطاقة الجنسية، ما جعلها تشعر بالبرد فجأة..حدّثها لماذا أوقف العلاج، ولماذا عاد، كيف قتل هذا المرض علاقة الحبّ الوحيدة التي عاشها، وكيف أنه لا يكرهه، لا يكره المرض لسبب يصعب شرحه..ذات صباح، طلبت "ياسمين حسن"رؤية الطبيب، وهذا ما حدث فعلاً.

***

١٩٩٦، حيّ كفرسوسة، دمشق

لم يكن من السهل على ياسمين أن تكون عاصفة حياتها المجنونة قد تحوّلت الآن إلى يومٍ صيفيٍ بليد وعاديّ، لكنْ؛ هكذا كانت شروط "وهيب حسن" لعودتها إلى المنزل، وهو الذي قال سابقاً بأنه تمنّى لو أنجبتْ زوجته قرداً، ولم ترَ عينا ياسمين النور. التزمتْ أخيراً بأدويتها بعد رحلة

شاقة من العلاجات والجرعات والتشخيصات المختلفة، تواصلت مع "الحكيم"بين الحين والآخر، لكنها لم تلتقِ به منذ زمن، فقد كان جزءاً من حياةٍ سابقةٍ، أرادت نسيانها، ولو أنه كان دون أدنى شكّ النقطة الإيجابية الوحيدة في تلك الرحلة المزدحمة بالعثرات. ساعدتها الأدوية كثيراً، لكنها بقيت تعاني عواصف هائجة من الرغبات التي شكّل مجرّد السيطرة عليها تحدّياً صعباً ومُنهكاً، لن تنال على اجتيازه أي تقدير أو ثناء. بعد وقت قليل، بدأت صبايا الحي بالتقرّب منها، وكوّنت عدداً من الصداقات الممتعة، حتى إن أمّها باتت أقرب إليها، أما وهيب؛ فبقي مصراً على ترك مسافة معينة بينه وبين ابنته الوحيدة.

لم يكن قد مضى على رحيل والديها إلى عملهما نصف ساعة حين قُرع باب بيتها، ظنّت أن أحدهما عاد لسببٍ ما، لكنّ الطارق لم يكن إلا ذاك الذي ظنّت أن صفحته قد طُويت للأبد، كان "رامي الريّس" يقف أمامها بجسده الطويل، ونظرة التعب التي لم يغيّرها تتابع السنوات أبداً، ذُهلت ياسمين، ولم تعرف ما الذي ينتظرها، لكنّ النجار الذي كَبُر قليلاً أنهى هذا المشهد الصامت بصفعةٍ قويةٍ، تركتها تغرق في عالمِ ناصع البياض، ألحقها بدفعة قوية، أدخلتها إلى الشقّة؛ ليقفل رامي الباب، بعد أن أصبح وحيداً، مع حبيبته السابقة. أرادت أن تصرخ وسع الكون، ولم تستطع، كانت الكلمات تتجمّع في فمها كالحصى، نظرتْ حولها، ولم تجد مكانا للهرب، كان رامي واقفاً أمامها، وقد بدا جثةً غاضبةً. لم تقوَ ياسمين على النظر في عينيه المتعبتين، واكتفت بالتضرّع: " رامي..أرجوكَ ". بكل هدوء، مشى إليها، كانت ترتجف، وبدأت دموعها تتساقط، وارتفع لهاثها، أمسك رامي بكتفيها، وهزّها مرّتين بعنف، نظرتْ إليه مجدّداً، وخرج صوتها متقطّعاً: "رامي..أرجوكَ". أمسك بشعرها، وسحبها بقوّةٍ؛ لتسقط أرضاً، ارتفع صراخها وحاولت الإفلات من ذراعيه القويتين، أطبق شفتيه على عنقها كما لو أنه لبوة، انتفض جسدها النحيل، وصرخت مجدّداً، لكنه سَدّ فمها بقبضة يده الثقيلة المتعرّقة، شقّ قميصها بحركة واحدة، وعضّ صدرها حتى سالت منها قطرة الدماء الأولى. مزّق ملابسها، وهي ترتجف تحت قبضته مالحة الطعم، صفعها بقوّة حتى صمت جسدها، لم يكن هناك الآن ما قد يُنقذ ياسمين من الذي ظنّته بعيداً عنها، باعد النجّار ما بين ساقيها، وقد عاد جسدها ينتفض، وعينيها تسبح في فضاء الغرفة بعيداً عن هذا الشيء الجاثم فوقها، كانت تعرف أن صراخها ومحاولاتها الإفلات منه لن تنجح، لكنها لم تستسلم،وهو لم يتوقّف حتى نال ما أراد. وحين أراح فمها، كانت لديها الفرصة لتصرخ، لتبصق في وجهه، لتشتمه..لكنّها لم تفعل شيئاً،

لم تقوَ على فعل شيء سوى البكاء الذي لم يُخرج دمعاً، بل أنيناً متقطّعاً.

لم ترغب ياسمين بأن تصارح أحداً مخافة أن تُلامَ على ما حصل، بالأخصّ من والدها. لكنها لم تقوَ على الصمت أيضاً، فتحدّثت إلى أهلها فور عودتهما، وهما - بدورهما - لم يحتاجا لسماع الشرح حتى يدركا ما جرى.

في المستشفى، عالجوا جراح جسدها، الشرطي كان ودوداً ومتفهّماً؛ حيث راعى حساسية موقف "ياسمين" وأهلها. تضامن معها بعض الجيران والأصدقاء خلال الأيام الأولى، وضجّ الحي بما جرى لابنة وهيب. بعد انقضاء الأسبوع الأوّل، عادت لوحدتها، مكسورةً، خائفةً، وحيدةً مع جرحٍ عميق، لم تره ممرّضات المستشفى، هذا الجرح الذي قد لا تُشفى منه أبداً. أما "رامي الريّس"؛ فقيل لاحقاً بأنه سافرَ إلى ليبيا، ولم يشاهده بعد ذاك اليوم أحد.

***

في ووترلو، المدينة الباردة الصغيرة في أونتاريو، كندا، أطفأت"بروك" التلفاز، وخنقت سيجارتها حتى انتهت الأخيرة جثة هامدة في زاوية الصحن. كانت ابنتها الوحيدة مع والدها في مسرحيةٍ ما. وهي في بيتها ذي القرميد الأحمر الجميل، تحارب الذكريات، وتخسر، كما هو حالها منذ سنوات. وقفت، ومشت ببطء على الأرضية الخشبية حتى وصلت إلى الحمّام، وقفت أمام المرآة الطويلة، وتأمّلت وجهها جيداً، ظهرت حول عينيها تجاعيدُ صغيرة، تزيد النساء الأربعينيات جمالاً، اكتسب وجهها لوناً وردياً، بفعل برودة الطقس في ووترلو. كانت "ياسمين حسن" تنظر إلى "بروك" دون أن تشيح بنظرها عنها، والأخيرة تبادلها ذات النظرة الحادّة، كان يمكن لحرب التحديق هذه أن تستمر، لكن"سلمى" قطعتْها بدخول المنزل. ركضتْ إلى أمّها، يسبقها صوت طفولتها، بدأتْ من فورها بقصّ حكاية المسرحية التي شاهدتها مع والدها، حدّثتها عن الأبطال، وعن الأغاني والضحك. حملتها ياسمين، وخرجتْ بها إلى المطبخ؛ لتجد "أسعد أبو ليلى"، وقد علّق معطفه قرب الباب، غمزها بعينه، وحدّق بها مبتسماً، وانشغل الاثنان سريعاً بتحضير الطعام.

حلم آخر الصيف

كما في بداية كلّ عامٍ دراسي، بدأنا جولاتنا الاستطلاعية السريعة في باحة المدرسة بحثاً عن طالبات جديدات، يعطيننا الدافع الذي نحتاجه لإكمال سنةٍ، بدأت للتوّ. منذ ثلاث سنوات، لم تأت صبية واحدة تستحقّ أن يستنفر المرء لياليه من أجلها. كان هذا عامنا ما قبل الأخير في المدرسة، مشيتُ طويلاً مع صديقي الذي اشتهر بكونه المندوب المخوّل بنقل رسائل الحبّ خاصّتي، كما عُرف بسداد رأيه، فيما يخصّ الحبّ والفتيات. بالرغم من صغر سننا، كان "شكيب" يميّز بحرفيةٍ غريبة - أو مصطنعة - الفتاة الخلوقة من السهلة، المتعجرفة من المتحرّزة. تكفيه نظرة واحدة حتّى يَسقط لباس الفتاة أمامه، وينكشف ما يخفى تحته. فهو الذي منعني مثلاً من الاقتراب من "جميلة"؛ لأنه كان واثقاً بأنها لا تستحمّ سوى مرّة واحدة في الشهر، ونصحني بعدم الاقتراب من "فرح"؛ لأنها متمرّسة، وإشباعها جنسياً سيكون من سابع المستحيلات. حتّى إن شكيب وقف في وجهي بصمود حارسٍ أمين حين أردتُ محادثة "سارة"، ولمّا سألته عن السبب ردّ ببلادة: "شرموطة". كانت "سارة" في عامها السادس عشر حينها، وشكيب القصير الممتلئ، في مثل سنّها. في المقابل، دفعني بكلّ قوّته حتّى أكلّم "ريان".لكن ريان للأسف، لم تكن من النوع الذي يستهويني؛ فهي طويلة أكثر من ما ينبغي، منعزلة دوماً ووحيدة. كانت كسولةً قليلة الحركة والكلام، مُعدّلاتها الدراسية منخفضة دوماً، ولم يبدُ أنها تكترث لذلك. بدت كما لو أنها تزحف نحو الهاوية بكامل إرادتها. لم يكن لديها الكثير من الأصدقاء. بدا واضحاً أن مديرة المدرسة تُعاملها بلطفٍ دائماً، بالرغم من كونها من أكثر الطالبات إخفاقاً، ما ساهم بعزلها أكثر. عُوملت "ريان" باحتقار من غالبية معلّمي المدرسة، حتّى إنها تحوّلت في أحيانٍ كثيرة إلى مضربٍ للمثل، حينما يرغب أحد المعلّمين بإثارة موضوعٍ "توعويّ" مثل نتائج الإخفاق على حياة الفتيات. سألتها معلّمة اللغة العربية مرّةً: " ما كان أحسنلك تتزوّجي وتقعدي بالبيت؟!". ظلّتْ ريان على هذا الحال، تتغيّب عن المدرسة كثيراً، وتتأخر بشكلٍ شبه يومي عن أوّل حصة. وحين تحضر "جثتها"، كانت تنسى روحها في المنزل.

انقضى شهرنا الثالث من السنة الدراسية ما قبل الأخيرة، وانتهت الامتحانات النصفية؛ لتبدأ إجازتنا الطويلة.

***

حين عدنا، كان كلّ شيءٍ على حاله؛ المعلّمون مشغولون بتحضير الدروس، وتزيين الفصول، الطلاب الكسالى كما كانوا. ظلّ "شكيب" البروفيسور الذي أقصده جائعاً لنصيحةٍ ما يقولها باقتضابٍ وثقة، وبطريقةٍ فجّة غالباً. أما "ريان"؛ فبدت وكما لو أنها بدّلت جلدها كأفعى. كان انقلابها صارخاً؛ بدت، وكأنها قصدت متجر الأرواح، واشترت أكثرها صخباً. بات يُسمَع صوت ضحكاتها المجنونة في كلّ مكان، أصبحت بسرعةٍ قياسيةٍ صديقةً للجميع، بمَن فيهم شكيب، أثبتت جدارةً في الدراسة، وبدأت درجاتها بالارتفاع تدريجياً، مسببةً بذلك صدمةً لكل من حولها. كانت أسرعنا في الكتابة، وحكماً أقدرنا في القراءة. نفضت الغبار عن ذاكرةٍ صخريةٍ، تمتلكها، واستفزت بها غيرتنا جميعاً، كانت تستشهد بمقولاتٍ لعظماء التاريخ، تكتب الشعرَ، وتُحضر معها المسرحيات لكتّاب، لم نسمع بهم قط، كما ناقشت المعلّمين بالروايات العالمية وروّاد الأدب عبر التاريخ. سرعان ما غدت ريان نجمة المدرسة، يتحدّث عنها الجميع، ويتهامس الشبّان معجبين بساقيها الطويلتين، وصدرها المتكوّر.

في ذلك الحين، كانت الفتاة الغامضة غارقةً في دنيا أخرى، فهي أرادت تمثيل إحدى مسرحيات "شكسبير"، وخاضت من أجل ذلك العديد من النقاشات مع إدارة المدرسة المُترهّلة، التي وافقت أخيراً على طلبها، وزوّدتها بكلّ ما تحتاجه لبدء العمل. في هذه الأثناء، كنتُ أراقبها بعينٍ، أغشتها الشهوة، أتخيّلها نصفَ عارية، تلبس ثياب ممثلة أفلام "بورنو" محترفة، وتنقضّ عليَ بعنف كلبةٍ في فترة تزاوجها. ولأنها غدت مصدراً لاحتلام شبّان المدرسة، سارعتُ لاغتنام الفرصة، والأخذ بنصيحة البروفيسور القديمة، وبدأت في محاولاتٍ جدّيّة للتقرّب منها. كانت أولى خطواتي التقدم بطلبٍ رسميٍ للاشتراك بمسرحية (حلم ليلة صيف) لشكسبير؛ حيث وقع عليَ الاختيار لألعب دور العاشق "ليسندر"، بينما تؤدي ريان دور "هرميا". شكيب - الذي أدخل نفسه عنوةً - اختارت له مُخرجتنا دور ملك الجان. بدأت التحضيرات، وخلال بضعة أيام، كانت ريان قد رتّبت الحوارات والأغاني، وكشفت أمامنا تعقيد الشخصيات وخفاياها.

هطلت ريان كالمطر على المسرحية الكوميدية، حتى ظننا بأنها قد

تلعب جميع الأدوار، وتُخرج العرض، وتكتب عشرة نصوصٍ غيره. لم تكن ريان جميلة بالمعنى المتعارف عليه، كانت ساحرة، وهذا ما لم أستطع مقاومته طويلاً، وكان لابد أن أقترب أكثر.

أتذكّر تماماً يوم الاثنين ذاك، خضتُ حينها صراعاً مريراً مع ذاتي الخجولة، انتهى بالنصر الساحق لرغباتي الحيوانية. ذهبتُ إلى "مخرجتنا" التي كانت تمارس الرياضة حول الملعب، وثدياها يقفزان بكلّ الاتجاهات. أوقفتُها كشرطيِ مرور، وقلتُ كمَن استحضر "عفاريت الدنيا" كلّها: "أنت تعجبينني". لم تبدُ عليها علامات الاستغراب، استجمعت أنفاسها، وقالت مبتسمة: "هل أنتظر اتصالاً منك الليلة؟" اتصلتُ بها في اليوم التالي - حيلة تافهة، اعتقدتُ سابقاً أن لها تأثيراً جباراً - وأذهلتني بخفايا روحها التي ظلّت طويلاً حبيسة قفصٍ غليظ الجدران. "ريان"، كما وصفتُها لشكيب حينها: كرنفالٌ متفجّر؛ لديها قدرة رهيبة على الضحك المُتواصل، والغوص في أحاديث عميقة ومتنوّعة. كنا نتحدّث لساعاتٍ على الهاتف، وأظهرتُ جرأة، ظننتُها مُستحيلة قبل الحياة الجامعية. بشكلٍ غريبٍ وغير متوقّع، اقترحتُ عليها لقاءً حميمياً بعد نهاية الدوام ورحيل الطلاب جميعاً. وبصورة أكثر غرابةً، وافقت على اللقاء، في الطابق الثالث السيّئ السمعة.

وافقت ريان إذن. أعتقد أن الشبّان يعون تماماً معنى أن ترضى فتاةٌ جميلةٌ بالصعود معك إلى الطابق الثالث، وأنتَ في السادسة عشر من العمر. شلّني الخوف، واحتلّت جسدي رعشةٌ باردة. أن توافق ريان بهذه السهولة يعني أنها حُكماً صاحبة "صولات وجولات" في الجنس، وقد لا تكون عذراء أساساً. أما أنا، وعلى عكس ما يُنسَج عني من حكايا بين الطالبات؛ لا أفقه شيئاً في هذا العالم الذي لم أعرفه سوى عبر الشاشات والصور المهرّبة.

صرخ الجرس مُبشّراً الجميع بانتهاء اليوم الدراسي. وقع على مسامعي دويّه كأنه بوق إسرافيل. مشيتُ كمَن يُساق إلى حتفه، تبادلنا النظرات باحتراف، مضتْ هي إلى داخل المبنى مجدّداً، بينما جلستُ أنا أستجمع قواي، وأعيد شريط النصائح أمامي. كان البهو طويلاً جداً، مُعتماً، وقد اختفت منه مظاهر الحياة. ركبتُ الدرج متّجهاً نحو الطابق الثالث، ضاق صدري، وبدأت دقّات قلبي بهزّ الصدر كلّه. توقّفتُ برهةً حتى تهدأ المعركة في داخلي، واقتحمتُ الفصل كقائد. كانت ريان تصطنع الانشغال بقراءة بعض أبيات الشعر عن الجدران، لم تلتفت. ألقيتُ عليها نظرة واحدة من الخلف، كانت كافية لأندفع كثور. أمسكتُ بخصرها، وبدأتُ أقبّلها على كتفيها، وأحشر يدي بين فخذيها محاولاً إيصالها لنشوةٍ سريعة، تكون

بمثابة نصرٍ، خُفتُ ألا يتحقق لاحقاً. أمسكتُ بسروالها، وأنزلته بصعوبة، توقّعتُ منها بعض الممانعة، انحنيتُ، وساعدتها بخلع السروال كُلّياً، كانت ساقاها متناسقتين، أجلستُها على الكرسي، وقد بدت مستسلمةً كقطة، أمسكتُ بفخذيها وأحكمتُ إغلاق أصابعي عليهما، قبّلتها، قفزتُ إلى الخلف، تراجعتُ بسرعة، وقد مشت في شراييني برودةٌ حادّة، ارتجفتْ يداي، وشعرتُ بركبتي تتقلّصان، تراجعتُ أكثر. كلّ شيءٍ ابيضّ حولي، انتابتني نوبةٌ من القلق والخوف. نظرتُ إليها، كانتْ تجلس على الكرسي بقميصٍ أبيض، وساقين عاريتين، منكوشة الشعر. خرجتُ بسرعة، هبطتُ على الدرج كلصّ، يلوذ بالفرار، ركضتُ خارجاً من المدرسة، ركضتُ حتى شعرتُ بقلبي يوشك على التوقّف. خفتُ أن تخذلني شجاعتي، وهكذا فعلتْ. أذكر تلك الليلة جيداً، غفوتُ بعد بكاءٍ متواصل، لم أبك مثله منذ سنوات.

في اليوم التالي، اختفتْ ريان. وحين مرّتْ الأيام، ولم تظهر، باتت حديث المدرسة. يقول أحد الطلاب بأنها مصابة بمرضٍ خطير، وتؤكّد طالبة مُقرّبة منها أنها مسكونة بالأرواح الشرّيرة، وأن أهلها يعالجونها عند شيخٍ معروف. بينما يدّعي "شكيب" بأنه شاهدها مع والدها في مكانٍ ما. الجميع كان يُبدي رأياً، كثيرون قالوا أشياء مختلفة، وأحياناً متضاربة. كنتُ أعلم أنها لن تظهر إلا يومَ عرض المسرحية، خصوصاً بعد أن طمأنتنا معلّمة اللغة العربية بأن الإدارة تواصلت مع عائلتها التي أكّدت – بدورها - أن ابنتهم بخير، وسوف تعود قريباً.

كنا كلنا على أتمّ الاستعداد، رفض الجميع بأن تلعب صبية غير ريان دور"هرميا"، أيقن الجميع بأنها سوف تظهر في أية لحظة، لبسنا أزياء شخصياتنا، وجهّزنا المسرح للمشهد الأوّل، اكتمل الحضور، ولم يبقَ سوى بضعة مقاعد فارغة. زاد التوتّر، انتظرنا، انتظرنا كثيراً، ولم تأت "ريان" يومها، كما لم يشاهدها أحد بعد ذلك.

قناع

في طريق عودتها إلى المنزل، كانت ترز السلام بتحية مهذّبة ومحبّة، تبتسم لبائع الورود الذي افترش الطريق إلى بيتها، وتجاوب حين يسألها البقّال عن حالها، فتقول "أنا بأحسن حال". كان يوماً طويلاً في العمل، كاد قناعها يسقط عن وجهها مرّتين، لكنها ثبتّته جيداً حتى أكملت ساعات عملها السبع، وها هي في طريق العودة الآن تجتاز المرحلة الأخيرة من رحلتها اليومية الشاقّة. بدا وكأن قناعها لم يعد متماسكاً، كما كان في بداية اليوم، شعرت بالخوف، نظرت حولها محاولةً اكتشاف أية نظرات غريبة تحيط بها، لكنْ؛ عبثاً، جميع المارة منشغلون بأحلام يقظتهم، يبتسمون لها، وتبادلهم - بدورها - المودّة والابتسامة. قبل الباب ببضعة أمتار، أوقفتها جارتها الصغيرة، وكأن قوّة خفية زرعتها هناك فجأة. سألتها الطفلة التي تعزف البيانو إذا كانت تريد فكّ ضفائرها، أو سماع بعض المقطوعات الموسيقية الجديدة.. فضحكت بصخب، وطمأنت الصغيرة بأنها سوف تزورها قريباً جداً. فتركتها البنت تدخل شقّتها بسلام. حين دخلت، كان البيت مظلماً وبارداً، مشت ببطء واثقٍ نحو المرآة، تحسّست القناع الذي يخفي وجهها، ذاك الذي تعرفه المرآة وحدها. خلعته بعنف، وتكوّرت على البلاط البارد، وأجهشت في البكاء.

عائلة المعلّم جبر

"ما يزال على حاله منذ أسابيع" قالت الأمّ، وهي ترشف فنجان الشاي، ثمّ أردفت بحنق: "يرغب بهجر المدرسة، وجهه مقفل، ولا يكلّم أحداً، وإذا ما ندهته التفت إليّ فارغ الملامح كجثة. لم يعد يعزف الموسيقى، حتى إنني هدّدته ببيع الجيتار، ولم يكترث ! انظر إليه! يبدو كالحبلى في شهرها الثامن". فتح الأب عريض الشاربين باب البراد، وبتفاهم ملفت، صمتت الصبية الجميلة؛ ليكمل الأب المشهد، وكأنهما على خشبة المسرح. "سوف آخذه إلى الكنيسة، وأجلسه مع الأب أنطون، كمحاولة أخيرة قبل أن أفقد الأمل منه". أفرغ نصف تنكة البيرة في جوفه دفعةً واحدة، وأكمل كلامه بعد أن جلس قرب الطاولة فاتحاً عينيه على اتّساعهما: ""مراد"الذي ظنناه هدية الرب، لم يكمل عامه السابع عشر بعد، لكن؛ يبدو كرجلٍ في الخمسين، ماذا يعرف عن هموم الدنيا هذا الفأر التافه، قال لأخته ذاك اليوم إنه لا يطيق الحياة، يا الله! هو في السابعة عشر من عمره، ماذا يعرف عن الحياة حتى يكرهها؟!أتعرفين، يا "ماري"، أذكر جيداً حين وُلد، جاءني أهالي البلد مهنئين، وكأن القدر أرسل لي أخيراً السيف الذي سوف أحارب به الكون. انتظرته حتى كبر، وكاد صبري ينفد، وها هو، منذ سنتين في دنيا ثانية، لا تشبه التي نعيش بها". انتظرت الأم زوجها حتى أنهى كلامه، وقالتها بحزم: "لن يذهب مراد إلى أي مكان"، ثم أردفت فوراً:" إن أردت عرضناه على كارلايل". هنا قاطعها المعلّم "جبر"بضربةٍ من كفّ يده الضخمة على الطاولة، قال بغضب، بينما تخرج الكلمات من بين أسنانه: "هل تعرفين ماذا سيقول ذلك الملحد غريب الأطوار؟ هل نسيت عارنا القديم الذي نحاول إزالته من ذاكرة هذه البلدة البائسة؟!" نهض؛ ليخرج، ثم عاد ليقول جملته الأخيرة: "إن أردتِ لابنك التحسّن، أبقه بعيداً عن وجهي، سوف يعود، كما كان عاجلاً أم آجلاً."

في الجانب الاخر من المنزل، بعد البهو الطويل، تقع غرفة مراد المظلمة عالية السقف، المفروشة بأثاثٍ، يبدو كما لو أنه يعود للعصور الملكية. بدت الغرفة خاوية، وكان هو نصف نائم، تتعارك الستائر أمام شباكه، بفعل رياح الليل. كان مراد شاباً بهيئة طفل، وجهه الخالي نهائياً من الشعر يكشف عن

ملامح مسالمة، تبعث على الارتياح. لم يكن الشابّ بحاجة لتوبيخ والده حتى يدرك بأنه مختلفُ عقن حوله، لم يكن بانتظار حُكم المعلّم "جبر"حتى يشعر بالجنون، وقد احتلّ زوايا حياته. يذكر تماماً المواقف التي تسبّبت بالحرج لعائلته؛ لم ينس حين اعتدى بالضرب على سائق والده، ولا حين أطلق سرباً من أقبح الشتائم وسط ذاك المكان المزدحم والمسقّى "سوق الأتراك". يذكر أيضاً تلك الليلة الشتائية، التي هبّ فيها واقفاً في عتمة الليل، وهو يصرخ وسع الفضاء حتى سارع سكان البيوت المحيطة لنجدته، بعد أن وصلت إلى مسامعهم صيحاته المتقطّعة التي توحي بأن رمحاً حاداً قد اخترق جسده الصغير. لم ينس تلك الليلة، ولم ينسها أبوه الذي عدّ ما حدث الإهانة الأكبر التي وُجّهت للعائلة منذ حادثة "أحد الشعانين".

***

كانت العائلة كلها مجتمعة، الساعة قاربت الخامسة فجراً، وما يزال الأطفال يجوبون المنزل بشكلٍ عشوائيّ كالوطاويط، بينما يجلس أهاليهم بدائرةٍ واسعةٍ منتظرين البكاء الذي سوف يخرج قريباً من الغرفة الكبيرة مبشراً بالحياة. جرت العادة بأن تجتمع العائلة بكلّ أفرادها في أثناء ولادة إحدى النساء، كيف إذنْ، وهو المولود الأوّل للمعلّم جبر بعد انتظارٍ دام طويلاً. تعالت صرخات الألم، لكنْ؛ لا بكاء حتى اللحظة. يتوسّط الدائرةَ العمُّ "سام"(الشقيق الأكبر لجبر)الذي يتربّع على العرش كأكثر شخصيةٍ مكروهة في العائلة. الجميع بحالة ترقّب؛ تُتمتم النساء، وتتحدثنَ بأمور كثيرة، أهمّها غياب الجّدة التي بقي مقعدها خاوياً. كانت الجّدة شخصية مبهمة للعديد من أفراد العائلة، لكنها احتفظت بمكانةٍ رفيعة بفعل الاحترام الذي يُكنّ لها من أبنائها. لم يسمح المعلم جبر لأيّ امرأة بالدخول إلى غرفة الولادة، باستثناء بعض العجائز. وبينما كان الجميع بانتظار أن يُسمَع بكاء المولود المنتظر، ظهرت "لميس"، وهي تصرخ: "وجدتُ جدّتي...وجدتُ جدّتي". وثب الجميع بحركةٍ آلية، وانقضّوا على الشباك الذي اتّجهتْ إليه لميس.

وإذا بـ "ماما نائلة"، الجدّة، تظهر في آخر الحي ممسكةً بيدها مكنسةً متشعّبة القش، تلبس رداءها الأسود المعتاد، وتكنس الأرض بسرعةٍ مخيفة، تتحرّك، وكأن جسدها عاد فتياً سامحاً لها بتجاهل هشاشته. لم تزل بعيدة، لكنها تقترب بتسارعٍ واضح دون أن تهدأ حركة يديها لحظة. لم يكن هناك أحدٌ حولها في هذا الوقت المتأخّر، صرخ العمّ "سام"بالمتجمهرين بصوتٍ غليظ؛ كي يعودوا إلى مقاعدهم، التفتتْ لميس

إلى عقها الغاضب، وهمست بصوتٍ خافت: "قالت إن المولود يجب أن يأتي، والشارع نظيف".عاد الجميع إلى مقاعدهم، وعيونهم تسبح في فضاء الغرفة. بقي العم سام يراقب والدته، وقد امتلكه القلق، نظر إليها، ومسح بحركة آلية دمعةً سقطت ميتة من عينه اليسرى. كانت قد بدأت "ماما نائلة"بالاقتراب من منزل الجيران حين قزر أن ينزل؛ ليعيدها، وهذه المهمة شاقة، ومجهولة النتائج.

بعد مخاضٍ متعب، وُلِدَ"مراد". وكان الجميع في انتظاره، كما كان الشارع - على امتداده - نظيفاً.

أحبّت "ماما نائلة"الأطفال جميعهم، ولم يحبها أحدٌ منهم. حتى مراد، آخر العنقود، لم يحبّها أبداً. فمنذ أصبح يعي ما يجري حوله و"ماما نائلة" تتجاهله معظم الأوقات حتى ظنّها تكرهه، حتى يجدها ودون سابق إنذار مندفعةً نحوه، مقبّلةً إياه كأمّ تستقبل ولدها العائد من السفر، ولا تتركه لحظة واحدة، تلاعبه، وتحيك له الجوارب الدافئة. اعتاد الأطفال بأن يلهوا بعيداً عن"ماما نائلة". حتى نساء العائلة كنّ يفضّلنَ عدم اقتراب أطفالهنّ منها، لكثرة ما أظهرت لهم من عدم اكتراث أو عدائية. في المقابل، أصرّ الآباء على أن تبقى الجدّة السلطة التشريعية الأعلى في المنزل؛ بحيث يظلّ لها مكانها الدائم على الطاولة حتى وإن غابت عن العشاء شهراً كاملاً. كانت لها كلمة الفصل بأمور مصيرية، حتّى حين تجاهر بعدم اكتراثها. كما أن العمّ "سام" أطلق عليها لقب "ماما نائلة"، وأجبر الجميع على مناداتها به، علّ هذه الأمور تساعد في ألا تتحوّل الجدّة إلى مصدرٍ للسخرية، أو نقطة انطلاق أساسية لنميمة النساء.

***

الصراعات السياسية والإعلامية في جبل لبنان كانت في أوجها، والمعلّم جبر يعقد الاجتماعات اليومية مع رفاق حزبه، ويمضي وقته في تتبّع الأخبار، والقيام بالزيارات، وحضور الاحتفالات الرسمية. وبينما كان يجلس ذات يومٍ على السرير، ويمسد جبينه آملاً في أن يتفتت الصداع سريعاً، قرعت خادمته البابَ قائلة إن هناك مَن يرغب في رؤيته. نزل بعد نصف ساعة؛ ليجد الضيف غارقاً في التأمل. لم يكن جبر يتوقّع حضور "كارلايل"، شتم زوجته سرّاً بعد أن ظنّ بأنها وراء دعوة الأخير لهذه الزيارة المفاجئة.

- أعتذر، لكن وقتي لا يسمح باستقبالك طويلاً. هلا أخبرتني عن سبب

حضورك، وكيف يمكنني أن أساعدك؟

- أتيتُ من أجل مراد، أريد رؤيته.

- دع عائلتي وشأنها، لم نتعلّم في الخارج مثلك، لكننا نعرف كيف نربّي أولادنا..

- آخر مرّة طلبتَ مني أن أدع عائلتك وشأنها كانت منذ ثلاثة عشر عاماً. لستُ بحاجة لمَن يذكّرك بما حصل حينها.

شعر المعلّم جبر وكأن "كارلايل" قد طعنه في صدره، حاول أن يتمالك أعصابه، فجلس، وأخذ نَفَساً عميقاً. كان كارلايل قصير القامة أنيق اللباس دائماً، يتغلغل الشيب في شعره بعشوائية. سارع الأخير للحديث قبل أن يستفيق "جبر" من صدمة الغضب..

- هذه ليست غيمة سوداء، وسوف تمضي بعيداً، وحيدكَ مريض، كما كانت جدّته من قبله. أنا أعرف عائلتكم جيداً، دعني أراه، علّني أستطيع المساعدة.

- اذهب إلى غريبي الأطوار الذين تعالجهم، ليس في هذا البيت مجانين؛ كي يراهم مَن مثلك..

- أنا أعالج المرضى، يا جبر، كانت من بينهم والدتك، وربّما كانت ستحظى بنهاية مختلفة، لو كففتَ بلاك عنها، أنت وشقيقك الأكبر.

- والدتي كانت مجنونة، حسناً، ها أنا أقولها لك، كانت مجنونة! أما ابني؛ فلا، شكراً على الزيارة.

وقف جبر فجأة دون أن يسمح لكارلايل أن ينطق بكلمة أخرى، وقال بصوت حازم "احترمتُ فارق العمر بيننا طويلاً، اخرج الآن".

كان "مراد"نائماً. بقي غارقاً في سباته لساعات طوال، بالرغم من محاولات أمّه الحثيثة لإيقاظه، حين استيقظ، كانت تجلس إلى جانبه، وتبكي بصمت. مسحتْ عينيها بسرعة، كما تفعل الأمّهات حينما يردنَ إخفاء الدموع. ابتسم لها ابتسامةً دافئة، وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى.

***

اجتمع حشدٌ كبيرٌ من المؤمنين، رجالاً ونساء وأطفالاً؛ ليبدأ الاحتفال بأحد الشعانين. هذه المناسبة المهمّة جداً كانت دوماً فرصة لالتقاء

الأحبة،وسماع الخطب والكلمات عن التسامح والحبّ والسلام. بعد القدّاس الذي ترأسه المطران، احتشد كثيرون حاملين سعف النخيل وأغصان الزيتون؛ ليبدأ الطواف الذي ستعبر فيه الحشود بالأحياء المجاورة للكنيسة؛ حيث كان من المقرّر أن تصل المسيرة إلى تمثال السيدة العذراء وسط الساحة؛ ليعود الحشد بعدها إلى الكنيسة مجدداً. بحث "العمّ سام" عن والدته دون جدوى، لم تعد السيطرة عليها ممكنة مؤخّراً، وهذا ما أجّج قلقه من اختفائها. بعد أن فقد الأمل، مضى مع الجميع إلى الكنيسة؛ كي يشارك في القدّاس والطواف من بعده. احتشد الجميع في الخارج، انتظروا اكتمال الصفّ الأمامي الذي سوف يضمّ رجال الدين والسياسة جنباً إلى جنب، كما جرت العادة، متشابكي الأيادي، مبتسمين لحشد الصحافيين الذي يقف مقابلهم. بدأت المسيرة، ومشى الجميع بانتظام، حتى إن مجموعات الأطفال الذين يحملون الشموع كانت تقف صفاً متماسكاً خلف الصف الأوّل. حمل "المعلّم جبر"غصن زيتون، ومضى مبتسماً. بينما بقي "العمّ سام" ينظر حوله قلقاً، فيما يردّد مع الجموع بصوتٍ يبالغ بقوّته. اقتربت المسيرة من الوصول إلى تمثال السيدة، وسرعان ما تعالت صيحات الصفّ الأمامي، تفرّقت الجموع المنتظمة، وتحوّلت المسيرة إلى صراخ وشتائم. كان تمثال السيدة منتصباً كما هو، تقف أمامه "ماما نائلة"التي قاربت السبعين بشعرها الرماديّ المتطاير. وقفت عارية بعد أن أسدلت على جسدها ما يشبه البساط الأبيض، ممسكةً في يدها اليمنى سعف النخيل، وباليسرى غصن زيتونٍ، تلوّح به للمتجمهرين أمامها، بينما تردّد كلماتٍ، لم يُسمع منها شيء، رغم محاولتها إسماع الجميع. اختفى السياسيون فجأةً، وتبعثر الأطفال، ووقف رجال الدين مذهولين دون كلام، أما حشود المؤمنين؛ فبدأت بالتفرّق، والمشي في اتجاهات مختلفة. أسكتَ الضجيجَ الحاصلَ صوتُ رصاصةٍ، اخترقت جسد العجوز المترهّل؛ ليسقط على إثرها؛ بحيث امتزج بياض بشرتها بالتراب دون أن تفلت الأغصان أبداً. ارتفع الصراخ، وبدأ الجميع بالركض العشوائي، وسرعان ما اختفى جسدها بفعل العشرات ممّن تجمهروا بقربه..ولم يُعرَف مَن أطلق تلك الرصاصة أبداً..

***

عاد المعلّم "جبر" إلى غرفته بعد تلك الزيارة المزعجة، شتم "كارلايل" وزوجته التي لابد دعته. بعد بضع دقائق، نهض كالجمل، وكأنما تذكّر شيئاً مهماً. هرع إلى مكان، كان قد خبّأ فيه سابقاً صور وحيده "مراد". جلس

يقلّبها بين أصابعه. كانت صوراً لمراد في مراحل عمرية مختلفة. "كم تغيّر!" قال الأب لنفسه. هل يُعقل أن الذي كان كتلةً من النشاط المفرط أصبح عجوزاً، وهو في هذا العمر؟! كيف يمكن لمَن قلقوا دوماً من احتمال قيامه بأفعال طائشة ومؤذية أن يصبح مجرّد "شيء" ينام طوال اليوم، وإن تحدّث لا يقول سوى السواد. خرج جبر من المنزل، ولم يعد حتى ساعات متأخرة من الليل. بالتالي، لم يعرف أن مراد قد اختفى إلا حين عاد؛ ليرى زوجته محاطة بنساء العائلة اللواتي حاولنَ تهدئتها. كانت غرفة الصغير على حالها، لم يترك رسالةً، ولم يلحظ خروجه أحد. بحثوا عنه كثيراً في القرى المجاورة ومنازل الجيران، حتى إن المعلم جبر ذهب إلى كارلايل، يرجوه أن يدلّهم على مكانه، لكن الأخير لم يقل شيئاً أبداً، واكتفى بمساعدتهم في البحث. عاد أهالي القرية إلى والدة مراد مرّةً أخرى دون أيّ معلومة تُذكَر عن مصير وحيدها. ولم يُعرَف عنه شيء إلا حين قرع بابهم ذاك الفلاح العجوز الذي عرف مكان مراد. فقد عثر عليه ميتاً بين أشجار التفّاح، محاطاً بالكلاب الهائجة..

اعتذار

" وعدتُكِ كثيراً، وكذبتُ. أعلم هذا جيداً..لكن؛ أنا اليوم مختلف، صدّقيني. لم يكن هناك ما أستطيع فعله. حسناً، لنقل إنني أردتُ الابتعاد قليلاً، أليس هذا من حقّي؟! أليس أخيَرَ لعلاقتنا أن يبتعد أحدنا عن الآخر حين يحتاج بعض الوقت مع الوحدة؟! أنا هنا الآن، لن أتركَكِ أبداً..أعدكِ..لا..لا، أعدكِ، حسناً، أنا أحبّكِ، أليس هذا كافياً؟! انظري إليّ .. إما أكون أنا أعظم ممثّل في التاريخ، أو أنني صادقٌ في كلِّ ما قلتُ."

صمت قليلاً وكأنه لاحظ ارتفاع صوته فجأة، أخذ نفساً عميقاً وأكمل بصوت بدا أكثر اتزاناً:

"أعلم أنك سوف تقولين إن هذا كله ليس اعتذاراً، وإنني لم أغيّر هذه العادة. نعم، محقّة أنت، فهذا ليس اعتذاراً. هل تعرفين لماذا؟ لأنني حين أتفوّه بكلمة "آسف"، اعلمي حينها أنني قذفتُ كذبتي الأولى في النقاش. نعم، أنا أكذب حين أعتذر، لهذا أقول "أحبّكِ" دائماً في اللحظة التي يجب أن أرمي أمام قدميكِ فيها اعتذاراً. معظمنا يكذب في هكذا مواقف، نعم، فما الاعتذار إلا مرحلة صغيرة هامشية في عملية الانتقال من الخصام إلى الصلح، أو من الخطأ إلى الصواب. نستطيع أن نشبهها بالقسم الذي يتلفّظه السياسيون في أثناء تقليدهم المناصب، بروتوكول إلزامي قبل الجائزة، ليس أكثر ! معظمهم ينسون القسم خلال ساعات، وهكذا نحن، ننسى سبب اعتذارنا، ولهذا نقوم بالخطيئة مجدداً. لكن؛ ليس لهذا السبب لا أعتذر. أنا أكره الكلمة، أكرهها لأنني أقولها منذ أعوام المراهقة بشكل أقرب إلى الروتين: شتمتُ صديقي في أثناء نوبة غضب، أنا آسف، ارتجفتْ يداي، واهتزّ صوتي، خفق قلبي بسرعة، وضاق صدري، وسافرتْ عيناي في ألف اتجاه في أثناء نوبة هلع، أنا آسف..لم أجب على الاتصالات والرسائل؛ لأنني في غرفتي المقيتة أصارع سواد الحياة، أنا آسف..لم أقوَ على الدراسة لشهر كامل، أنا آسف..بعثرتُ نقودي دونما سبب وجيه، أنا آسف..صوت الموسيقى عالٍ، أنا آسف..لا أستطيع الخروج اليوم، أنا آسف..تجاهلتُكِ كثيراً، أنا آسف..هل أخفتُك؟ هل أخفتُكم؟ أنا آسف..أنا اسف..تبّاً "يارا"، أنا اسف..اااسسف".

لم يستطع أن يكمل، فسقط على ركبتيه، والتقط أنفاسه بصعوبة، ها هو يفقد السيطرة مرة أخرى، كيف لـ "يارا" أن تُكمل معه نقاشاً كهذا، إن كان هو لا يحتمله أمام المرآة ! شعر بالدم يسري مجنوناً في عروقه، انتظر برهة حتى هدأ لهاثه قليلاً، وقف مجدّداً أمام المرآة..وبدأ من جديد..

لا أشعر برغبة حقيقية في زيارة البحر، لكن؛ ثمة ما يشدّني إليه. خرجتُ مسرعةً كمن يواصل تتبع خيوط حلمٍ قديم. مشيتُ بخطوات مهتزة، وخائفة، كنتُ أشعر برغبة مجنونة بأن أرمي نفسي على البساط الأسود الممتد، وأدعه يداعبني كطفلة. أريده عنيفاً هائجاً، يسحبني دون أن أقاوم إلى عمقه الداكن؛ ليقذفني رصاصةً عائدةً إلى الشاطئ. في البحر، أغدو تائهة كالأسماك، أنتظر أن يشدّني شيءٌ ما من القاع؛ لأحيا مجدداً.. جلستُ ممددة برجلين من خشب، أراقب الزبد العالق على أظافري التي لم أقلّمها منذ أسابيع. يسبح بقربي طفلٌ "أزعر". كانت أمه قريبةً منه، ترنو إليّ باستغراب، منتظرةً أن أردّ ابتسامات طفلها، أو أداعبه، كما تفعل الأخريات، أن أجلسه على ساقي مثلاً، وأقبّل جبينه؛ لتنتشي هي بجمال طفلها الأشقر. بالقرب مني أيضاً، رجلٌ خمسينيّ يبتسم من بعيدٍ كالأبله، لم يستطع إخفاء ترهل جسده، بالرغم من محاولاته شدّ عضلات صدره الأجعد أمامي، ابتسمَ لي من بعيد، واقترب. لا أريده أن ينطق بكلمة واحدة، فأنا بحالة لا أقوى فيها حتى على النظر إلى ما لا أريد أن أراه.

"وحدكِ هنا ؟ أليس الطقس حاراً ؟"

لم ألتفتْ إليه البتة، بقي واقفاً بجانبي، كما لو أنه تحوّل إلى كتلة جليدية. بدا كما لو أن صراعاً احتدم بين رجلين، يقبعان في أعماقه؛ أحدهما شابٌ وسيم، عريض المنكبين، يجبره أن ينتظر، ويقول له: " سوف لابد أن تلتفتْ، أنا على يقين بأن النساء في هذا العمر ينجذبنَ للرجال الاكبر سناً، هي مسألة وقتٍ فقط حتى تنظر إليك". والثاني، كهل في حوالي السبعين، يهزأ منه ومن "كرشه". يخبره هذا الأخير أن جسداً أبيض طازجاً، كجسدي، لن يرضيه سوى رجل في أوج فحولته، مثل ذاك الأسمر المستلقي على الشاطئ بجسدٍ لامعٍ كثعبان.

"أعتذر على الإزعاج، أنا سليم محمد".

تجاهلتهُ مرّةً أخرى، تلاشى الجميعُ من حولي، وبقيتُ وحيدةً مع "سليم محمد". حتى البحر بدا مذعوراً، يهتز، وكأنه يُنذرني بشيءٍ ما. اختفى

الطفل الصغير، تمنيتُ لو أنني ضممته إلى صدري، وقبّلته كأمٍ، تودع أصغر أبنائها. تمنيتُ لو اقتربتُ من أمه، وصارحتُها بأنني لا أريد أن أكونَ قربَ البحرِ، ولا حتى في أيِ مكانٍ آخر. كان من الممكن أن نغدو أصدقاء، نتبادل أحاديث النساء وهموم الحياة. قد تحدّثني عن زواجها المخفق، أو عن مطبّات الحياة التي ترتمي في طريقها فجأة. كان من الممكن حقاً أن أصبح مرآةً لأسرارها، وأن أعلّم طفلها الرسم وقراءة الكُتُب وسماع الموسيقى و"الكلمة".

لكنني الآن عالقةٌ هنا، مع سليم محمد، هذا الذي يجلس بجانبي، وينتظر أن يعود إلى بيته بصيدٍ موفّق. أتخيّله يدخل غرفة الجلوس، يرمي بمفاتيحه على الطاولة، ويقف كالعامود، حتى تلتفتَ إليه زوجته وأولاده. حينها فقط، سوف يدير ظهره، ويمشي منتشياً إلى غرفته؛ لينام بفخر. بدأ يحرّك جسده بطريقةٍ غريبة، يلتفتُ يميناً ويساراً، كما لو أنه يوشك على القيام بعملٍ مجنون. أظنّ أن الكهل في داخله انتصر أخيراً، وقرّر أن يتركني وشأني. بقيتُ مكاني، أرنو إلى البحر، ولا شيء سواه. نهض سليم محمد، وأخرج ضحكةً غريبةً، وقال "أراك لاحقاً". يبدو أنه أراد أن يظنّ من حولنا بأننا على معرفةٍ سابقة، لم يرد أن ينهض مكسوراً ذليلاً، يُلملم بقاياه المبعثرة على حبّات الرمل، ويمضي كقطٍ مطرود. كنتُ أريده أن يبقى بجانبي أكثر، دون أن يقول كلمة واحدة، شعرتُ بهذا حقاً. هل رحل؟! أهكذا تنتهي القصّة بيننا، بأن ينهض كالجمل، ويمضي بعيداً؟! التفتُّ أخيراً إليه، بينما كان يتّجه نحو ملابسه المنثورة على الشاطئ. نظرتُ حولي، ورأيتُ الطفل وأمّه يلبسان ثيابهما استعداداً للرحيل، الشابَ الأسمر يسبح بعيداً، ويتلاشى في زرقة المياه. بدأت الشمس بانسحابها التدريجي، فنظرتُ إلى البحر الساكن الآن، وانفجرتُ بالبكاء. بكيتُ بصوتٍ مرتفع، سمعه عامل النظافة، عاود هاتفي الصياح، فرميتُه بعيداً، غرزتُ أصابعي في الرمل، ومسحتُ وجهي كمَن تصلّي لمريضٍ، اقترب من النهاية. ارتعشتُ كلّما اصطدم الموج بأصابعي، ضربتُ الأرض بكعب قدمي مرّاتٍ عدة، علّي أوقف تدفّق المياه بين فخذيّ، لكن؛ دون جدوى. لم أقوَ على الحركة، ولا حتى الصراخ. بكيتُ كثيراً دون أن أعي، إذا ما اقترب مني أحدٌ أم لا. لا يهمّ، بكيتُ حتى استيقظتُ فجأةً؛ لأجد الظلام يتسلّل حولي كجيشٍ من النمل، لا أحد سواي هنا الآن. أريد أن أصرخ، لكنني ضعيفة، أضعف حتى من أن أصرخ. كان يجب أن أبقى في غرفتي، ولا أخرج منها أبداً، لا أريد أن أنهي حياتي اليوم، ليس هنا، ليس في البحر، لم يعد كما كان حين وصلتُ، بدا هادئاً الآن، خبيثاً وغدّاراً. لم أثق به، وبعد اليوم لن

أثقَ به.

فَتحت أمي الباب، وبكت بعمق، هزّت كتفي، كما لو أنها تتأكّد أن هذا الجسد الواقف أمامها حيّ فعلاً، أمسكت بيدي، وساقتني إلى غرفتي، كان أبي يدخّن سيجارته الرخيصة، وينظر إلي بحقد. لم أعره أيّ اهتمام، ولم أردّ على سؤال واحد من وابل الأسئلة التي أطلقتها أمي، تسلّلتُ تحت لحافي الدافئ، ونمتُ، نمتُ يوماً كاملاً ..

النوبات الأولى كانت خطيرة جداً، أذكر أنني في إحداها لم أخرج من البيت لشهرين كاملين، ممّا استدعى أن يحضر أبي"الشيخ مصطفى" إلى المنزل؛ ليقرأ علي آيات من القرآن. لم أكن أعلم حينها ما الذي يجري في داخلي، لكنني كنتُ على يقين أنه شيءٌ يستدعي المساعدة. رفضتُ الذهاب إلى الطبيب، لكني تمنيتُ لو أستيقظ يوماً؛ لأجد طبيباً ينتظرني في غرفة الجلوس. كانت حالتي سيئة، لا أذكر كثيراً ما الذي دار في خلدي حينها، لكنني أذكر أني رغبتُ بالموت حين دخل أبي، وقال: "هناك مَن يودّ رؤيتكِ، "الشيخ مصطفى"، شيخٌ معروف، وقد شُفي علي يديه كثيرون، عانوا ممّا تعانين". لم يعرف أبي شيئاً عن حالتي، ولكي لا يضيع وقته بالقراءة، أو استشارة طبيب، قرّر أن يجلب "الشيخ مصطفى". رفضتُ كثيراً، ألحّ أكثر، وحين أصرّ أن أخرج رغماً عني، خرجتُ حافية القدمين مرتديةً شورتاً قصيراً -كنتُ أخجل حتى من أن ألبسه للنوم - بالإضافة إلى صدريةٍ سوداء، أظهرت طلائع صدري المشدود. وقفتُ أمامهم كتمثال، لم يستمرّ المشهد أكثر من ثوانٍ معدودة. ضربَ الشيخُ عينيه براحتي يده بحركةٍ آلية، وأسرعت أمي؛ لتقف بيني وبينه، بينما تدفعني إلى الوراء، وهي تعضّ على شفتيها بعنف. أما أبي، فلم يشح بنظره عني لحظةً واحدة، كان كقائدٍ يُساق إلى حبل المشنقة وسط جمعٍ من محبيه؛ حادّ الملامح ومكسور الروح. بقيت أرنو إليه حتى دفعتني أمي دفعة قوية، سَقطتُ بسببها على الأرض. لم يكلّمني أبي بعدها لوقت طويل، ولم أكترث.

"مارغريت"، صديقتي اللبنانية أمريكية الأمّ، في طريقها إلي الآن، أرادتْ أن أرافقها اليوم إلى معرضٍ لرسّامٍ عربي، نسيتُ اسمه، لأنه سينتهي بعد ثلاثة أيام. قالت مارغريت مازحةً بأن هذا الرسّام لو قطع أذنه، لفاقت شهرته شهرة "فان جوخ". أرسلتْ لي صوراً لبعض لوحاته منذ أسابيع، ولم ألتفتْ لها، وها أنا ذاهبةٌ الآن إلى معرض الرسّام الذي تعرفه مارغريت جيداً، ما يعني أنه سوف يقف معنا قليلاً؛ لينطق ببعض الكلمات التي

يتشدّق بها الفنانون عادةً في معارضهم، تلك التي تتحدّث عن "الهارموني"، وما شابه!

تجوّلت بين اللوحات ببطء مصطنع، أتأمّل جمالها تارةً، وأستعجب من غلاء سعرها تارةً أخرى. مشث مارغريت، بثقة أكبر، فهي تعرف تماماً هذا النوع من الفن، وتجيد تمييز جيّده من الرديء. لمحتُ لوحة بعيدة، ثمّة ما يشدّني إليها بقوّة، التقطتُ كأس نبيذ من الطاولة المجاورة، ومشيتُ بخشوع نحوها. وشعرتُ كلّما اقتربتُ منها أكثر بأن صوتاً ما يرجوني أن أسرّع الخطوات. وقفتُ أمامها، كانت اللوحة كبيرة جداً، قد تكون الأكبر في المعرض؛ يتوسطها وجهُ كبيرُ أصلع، عينان مدوّرتان واسعتان ورماديتان. كان الغريب في الوجه المرسوم خلوّه من أي تعبيرٍ، أو حالة؛ ليس سعيداً بالتأكيد، وحكماً، ليس حزيناً.

حول الوجه المفتقر لأيّ ملامح، تظهر مجموعةُ من الوجوه الصغيرة، منها الضاحك بخبث، ومنها الحزين كجدّة. أكثر من عشرة وجوه، يحملُ كلٌّ منها تعبيراً ما، أما الوجه الذي يتوسّط اللوحة؛ ميت.

" لم أكن بأحسن حالاتي النفسية حين رسمتُها".

وقفتُ للحظة دون حراك، أعرف الصوت جيداً، التفتُ ببطء ملفت، نعم، هو، إنه "سليم محمد".

كان يرتدي قميصاً أبيض، تاركاً أزراره الأولى مفتوحة؛ ليظهر شعر صدره، ويُبقي عنقه حرّاً من أيّ قيد. بدا طويلاً جداً واثقاً، وأصغر سنّاً ممّا بدا في البحر. لم ينظر إليّ باستغراب أبداً، يبدو أنه عرفني مذ وطأت قدماي قاعة العرض، لم أستطع إخفاء بريقٍ لمع في عيني، يعرف معناه رجلٌ في سنّ سليم محمد. ظهرت مارغريت فجأة، وبدأتْ تبدي إعجاباً باللوحة، قارب التملّق. حين سَألتهُ عن اسم اللوحة، قال "ليثيوم"، فاستفسرتْ "مارغريت" عن سبب التسمية. ابتسم الرسّام، وطلب منها أن تنسى عنوان اللوحة، وتنظر لها بمعزل عن الاسم. ثمّ أردف بخبث: "مَن لا يتعاطى هذا الدواء (ليثيوم) لن يفهم معنى اللوحة تماماً، وسوف لن يصله الإحساس الكامن خلف هذه الأشكال". في هذه الأثناء، كنتُ أبتسم، وأومأتُ برأسي موافقةً..

لم يكن من المحبب أن يتغيب أحدٌ عن الاجتماعات في شركة "دلتا كيو"، يعرف الجميع هذا، بمَن فيهم "رام"، مع ذلك، استرق الأخير النظر إلى معصمه؛ ليجد العقرب المشاكس وقد استقرّ عند الساعة العاشرةِ، ما يعني أنه تأخّر اليوم بسبب هذا الاجتماع اللعين. هبّ واقفاً، اعتذر من المجتمعين بصوتٍ هادئ ومهذّب، جعل من لومه على الرحيل أمراً في غاية الصعوبة. مشى في الممرّات كمَن يسابق الوقت، كان عليه التظاهر بعدم معرفة بعض الأشخاص الذين مرّوا به مبتسمين، فيما يسترق النظر إلى الساعة، كأنه يخاف أن تفلت من معصمه، خفتتْ كلّ الأضواء من حوله، وبدت نافذة المقهى كالضوء في آخر نفقٍ مظلم. وصل أخيراً، ووقف أمام إحدى النوافذ العملاقة في مقهى الطابق الثالث؛ ليكتشف أنه قد تأخّر فعلاً، لم تنفعه خطواته المتباعدة، ولم يجدِ اعتذاره عن متابعة الاجتماع، فها هي تطفئ سيجارتها، وتعود أدراجها نحو المبنى، لن يتمكّن من مراقبتها، كما يفعل كلّ يوم، ولن يستطيع حمايتها من عيون الآخرين، كما يظنّ أنه يفعل عادة. لم تمض ثوانٍ قليلة حتى اختفتْ بجسدها الممتلئ، وشعرها الذي تغزوه الرياح فجأةً، فيصبح مجنوناً كبحرٍ هائج. طلب قهوته، كأن شيئاً لم يكن، بالرغم من أنه شعر في قرارة نفسه بأمعائه تعتصر حزناً، مثل السيجارة التي خنقتْها في المنفضة.

***

أيّ صدفة هذه التي قد تقود أجمل صبيةٍ عزباء في الشركة لأن تجلس إلى جانب شابٍ وسيم، كاد يقترب من أن يعتاد حياة العزوبية للأبد. كان هذا في احتفال الشركة بذكرى تأسيسها الخامسة، لم يكن ينوي الذهاب أساساً، ثمّة ما أرغمه على الحضور، إنه القدر حتماً! كان قد سمع عن شقراء الطابق الأوّل بضع مرّات منذ تعيينها في قسم المشتريات. قابلها صدفة مرّتين أيضاً؛ في الأولى، كانت تلتهم سيجارتها في المكان المخصّص للتدخين خارج المبنى، وفي الثانية كانت تهمّ بركوب سيارتها الصغيرة؛ لترحل تاركةً خلفها الكثير من العيون التائهة. ها هي بجانبه الآن، يكاد يشتمّ رائحة جلدها الخالي من العطور المركّبة،ويسمع دقّات قلبها. لمع

خلخالٌ فضي أمام عينيه، وكان كافياً لتجميع بقاياه المنثورة في أرجاء المكان. هذا هو الوقت إذن، كلمة الرئيس التنفيذي مملّة كالمعتاد، نظر إليها، وتصرّف دونما تخطيط، وضع علبة من العلكة الثمينة أمام وجهها، وابتسم ببلاهة. معتادةً على هكذا نوع من المواقف، التفتتْ إليه بسرعة، كانت عيناها لا تشبهان شيئاً في الدنيا، حطّمتْ لحظةَ تأمّلِهِ ضحكةً خفيفة، خرجت رغماً عنها، تبعها انفجارٌ من الضحك، جعلها محطّ أنظار بعض الأشخاص حولهما. تسارعت دقّات قلبه، وشعر أنه على أعتاب سكتةٍ قلبية، لم تتوقّف عن الضحك، بالرغم من محاولاتها، سرعان ما ظهرت طفلةً بريئة، بهيئةِ أشبه بحوريات البحر. لم تتوقّف عن الضحك، وبدأ يتعرّق كمراهق، ويمسح جبينه، ويمتصّ شفتيه بحركةٍ لا إرادية. هدأ صوتها قليلاً، وباتت ضحكاتها متقطعة، نظرتْ إليه مجدّداً؛ لتجده على بُعد ضحكة واحدة من الذوبان خجلاً. "يا إلهي، لو سألتَني عن الوقت، لكانت طريقةً أقلّ كلاسيكية من التي قمتَ بها"، قالتْ، وقد عادتْ للضحك المتقطّع. اختفى الخجل فجأة، وقد شعر أن خبرة ثلاثين عاماً على هذا الكوكب، كان يجب أن تقدّم شيئاً أفضل حقاً من الذي فعله.

- حسناً، أظنني قد أضعتُ للتوّ فرصتي الوحيدة لجذب انتباهكِ.

قال، وقد اقترب من وجهها؛ كي لا يَسمعه أحد.

- الاحتفال ما يزال في أوّله، جرّبْ شيئاً آخر، قد ترغب بسؤالي عن حالةِ الطقس مثلاً.

- إذاً، لننسَ ما حصل، ونفترض أنني وصلتُ للتوّ إلى هذا الحفل المُملّ، وفجأةً لاحظتُ شقراء الفاتنة تجلس إلى جانبي، هل أظهر أيّ تحسّن الآن؟

- مممم ... تابع.

- أنا "رام"، مدير قسم المالية، منذ ثماني سنوات، وحياتي تغزوها الأرقام، ولا شيء سواها، اعذري ارتباكي..

ابتسمتْ، ومدّتْ يدها مصافحة إياه قائلةً: " أنا ليلى".

انقضتْ ساعات الحفل الثلاثة بكلّ ما تضمّنته من خُطبٍ وكذبٍ وطعام، استلم كثيرون جوائز تقديرية وتحفيزية، واحتفظ رام بالجائزة الكبرى هذه المرّة، فبعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الضحكة الأولى، سوف يقابل "ليلى"على العشاء. هكذا اتّفقا، لم يحتجْ أكثر من التمعّن في بحر عينيها

حتى يعلم أن التي كانت تجلس بجانبه هي فرصة العمر التي سمع عنها منذ سنوات. تلك التي تأتي مرّةً واحدة، كما يقولون، وترحل، إن أفسح لها طريق الرحيل.

دخل بيته دخول الفاتحين، منصوب القامة ومرفوع الجبين، يدندن أغنية "كليف رتشارد" التي سمعها في أثناء توزيع الجوائز، كانت "ساندي" بعينيها الزرقاوين تراقبه مذ دخل باب البيت، كان فرحاً بشكلٍ لا يُوصف، جلست تحدّق به مستغربةً هذه الطاقة الإيجابية الكبيرة، تمدّدت على الأريكة بقربه، تنتظر أيّ لمسةٍ منه، توحي بالحنان، تظاهر أنه لا يراها، لا يعرفها، ثمّة شيءٌ أهمّ من "ساندي" يلوح في أفقه هذه الليلة، أهمّ من أي شيء حصل معه منذ سنوات. على عكس عادته، لم يسرع لسماع الأخبار، خلع ربطة عنقه، وفتح أزرار قميصه كسكّيرٍ خمسينيّ في حانة عتيقة، ذهب إلى المطبخ، وتبعته ساندي بخفّة، كانت تنظر إليه بتمعن، هذه المرّة لم تفهم تصرّفاته الغريبة. ها هو في المطبخ الآن، ليس جائعاً، لكنه يحتاج لأن يبتكر شيئاً جديداً، كطبقٍ صعب! مشت، وتمدّدت مجدّداً على الأريكة، وتظاهرت بعدم الاكتراث، ونامت.

وصل قبل الموعد بقليل، كان يريد أن يراها، وهي تدخل المطعم، تلبس فستاناً قصيراً أحمر اللون مكشوف الظهر، يُظهر أولى عظام عامودها الفقري، تمشي بهدوء؛ حيث يُسمع دويّ كعبها العالي بوضوح، انتظرها، تدخل بشعرها المتطاير وعطرها الربانيّ الذي يضيع في الجوّ؛ ليشكّل غيمةً، تتبعها حيث تمشي، كان على يقينٍ بأنها لن تتخلّى عن جمال وجهها مقابل مستحضرات التجميل، بعض البودرة فقط، وخطّ غليظٌ من الكحل، يُظهر حدّة عينيها البدويتين. سوف تجلس أمامه بصدرٍ خجولٍ، يُظهر - فقط - ما يستحقّ هذا الكون البائس أن يرى. رشف قهوته باستمتاع؛ لتقطع حلم يقظته، وتدخل بشعرٍ مربوطٍ، يشبه شعر الفَرَس في مسابقات الجمال، تخفي قدميها بحذاءٍ صغير، رُسم عليه بعض الخطوط بألوان مختلفة، يعلوه ثنائيّ من الجوارب القصيرة. كانت تلبس بنطالاً من الجينز الأزرق، ويظهر على صدرها المخفي صورة رجلٍ ما، ظنّه رام مغنياً أجنبياً قديماً، تمشي بثقةٍ، تثير الغرائز، جلست أمامه بشفتين مبتسمتين: "لم أتأخّر عن الموعد. لكن؛ يبدو أنني تأخّرتُ عليك" قالت، وقد بدأت تسكب كأساً من الماء.

لم يعتد رام هذه العفوية من أيّ أنثى سابقاً. كان واضحاً أن الحبّ قد وقف على الباب منتظراً انقضاء الوقت فقط. عاد إلى منزله تلك الليلة

مندفعاً نحو "ساندي"التي كانت قد أنهت عشاءها للتو، لاحظتْ لهفته، فازدادتْ إصراراً على التجاهل، بطحها أرضاً، وأمسك ببطنها النحيل، وبدأ يداعبها، ويغنّي، يمسح على جسدها، ويجلسها على فخذيه رغماً عنها. لم تكن ساندي قطّةً عادية، كانت صديقةً تجيد الإصغاء، وحفظ المسافة بينها وبينه. عايشته في حالاتٍ، يصعب على أيّ إنسان تحمّله بها، كانت مستقلّةً عنه نوعاً ما، غير متطلّبة، تعرف أين طعامها وشرابها وسريرها، كما تجيد استخدام المرحاض دون مساعدة، حتى إنها امتلكت موهبةً مذهلة، فكانت تبتعد عنه حين يشتاق الوحدة، وتتسلّل تحت ذراعه في أثناء نومه حين يشتاقُ الحنان، دون أن يطلب منها ذلك بكلا الحالتين.

سرعان ما انتشر الخبر في شركة "دلتا كيو"، خلال بضعة أشهر، لم يبقَ أحدٌ في الشركة جاهلاً بالحبّ الذي يجري في عروق العاشقين من الطابقين الأوّل والثالث، كان يصحبها للتدخين أمام المبنى، يتناولان وجبة الغداء معاً، ويزوران مكاتب بعضهما مرّتين يومياً، على أقلّ تقدير. اجتماعياً، انتشر خبر العلاقة أيضاً حتى أصبحا بعيون مَن حولهما زوجين دون خواتم. فسُمح لـ "رام" زيارة "ليلى" في بيتها متى شاء، نشأت صداقة بينه وبين أخيها الأصغر الذي سرعان ما أصبح رام مَثَلَه الأعلى فيما يتعلّق بالعلاقات والنساء، لسببٍ يجهله رام أكثر من أيّ شخص آخر، أما أختها الكبيرة، "ملك"؛ فقد رأت في رام الأخ الأكبر الذي حُرمتْ منه طويلاً.

في المقابل، لم يكن لـ رام أيّ أفراد من عائلته؛ لتتعرّف إليهم ليلى، فكان وحيداً في بلاد الاغتراب لأبٍ مدمنٍ على القمار، وأمّ خسرها في حادث سيارة، وهو ما يزال في سنّ المراهقة، تزوّج أبوه بعدها، وانتقل للعيش في بولندا؛ ليشقّ رام طريقه وحيداً متجاوزاً الصعاب تارةً، وواقعاً في مطبّات الحياة تارةً أخرى. نشأتْ صداقة سريعة بين "ساندي"و"ليلى"، حتى إن الأخيرة كانت تأتيها محمّلةً بالأطعمة والألعاب حين يتأخّر رام بالرجوع إلى المنزل الذي سرعان ما أصبح مملكتها؛ تطبخ، وتنظّف، وتعيد ترتيب الأثاث حسب رغبتها، ومتى شاءت.

كان من الممكن لهذا كله أن يستمرّ دونما إزعاج، لكن؛ وبينما كادت علاقتهما أن تصبح الأكثر مثالية بنَظَر مَن حولهم، وجد رام نفسه أمام القرار الذي أجّله طويلاً. عليه الآن -ودون أي تأخير- أن يصارح ليلى بمرضه، فبالرغم من أنه أحسن إخفاءه جيداً عن الكثيرين، بعد أن علّمه تتابع السنوات كيف يروّضه، ويحتمي منه، بقي المرض مع ذلك وحشاً، يطلّ برأسه، كلّما بدت حياة رام تقارب الكمال. لم يجد في السابق صعوبة

تُذكَر في الإفصاح عنه للبعض؛ حيث ساق حياته "السعيدة" كمثال؛ ليبرهن على أن المرض ليس خطيراً، ولا يحمل تأثيراً يُذكَر على حياته. كان أحياناً يستغلّ جهل هؤلاء بالأمراض النفسية، فيبالغ بالتفاصيل الملفَقة حتى اعتقد الذين حدّثهم أن هذا المرض لا يعدو كونه نسمة خفيفة من الإنفلونزا..لكنها نفسية! أما الآن؛ فقد اختلف الأمر، هذه حبيبته التي تمشي بخطى ثابتة؛ لتصبح زوجةً له، وأماً لأطفالهما يوماً ما. أيّ مرضٍ هذا الذي قد يُورثه لأطفالها؟! أيّ تعب وحرج وألم سوف ينقل إليهم؟! وأيّ مستقبلٍ مبهم سوف يضعهم أمامه؟! ثمّ كيف ستتقبل إخفاءه هذه الحقيقة عنها طيلة الفترة الماضية؟! تساءل وتساءل..عادت به الذاكرة إلى بداية الألفية الثانية، حينما كان في أوج مراهقته، وقد بانت طلائع المرض تسرق منه أعوامه المصيرية. هل عاش هذا الكَمّ من الألم طفل مثله؟! وهل يريد حقاً أن يعبر أطفالهما الطريق الوعر الذي عبر؟! تذكّر المرّات التي ضُرب فيها؛ لأنه لم يرغب في الذهاب إلى المدرسة حين لم يستطع ترك الفراش، تذكّر صراخ والده الذي لازمه طويلاً، وقسوة الطلّاب في التعامل مع بعض تصرّفاته وطباعه، تذكّر نظرات الشفقة جيداً، وصداقاته المتقطّعة، تذكّر الأطبّاء، والأدوية، والأصوات، ودماءه التي سالت حين حاول حزّ ساعده ذات شتاء..هكذا مرّت الذكريات أمامه كسحابة ضباب، ولم ينسَ أن يتذكّر، كما لم ينس يوماً، أوّل مرّة سمع بها الكلمات الأربعة التي طُبعت على جبينه إلى الأبد: "الاضطراب الوجداني ثنائيّ القطب".

كان من الممكن أن يستمرّ باستفزاز مخزون ذكرياته السوداء، وأن ينام ذاك اليوم دون أن يفعل شيئاً سوى التدخين وسماع الموسيقى، لكنّه وجد نفسه بعد بضع ساعات أمام منزل ليلى. لا يدري كيف وصل؛ إذ كان يعيد طوال الطريق سرد الأفكار التي سوف يقذفها أمامها. شعر بالراحة الفورية حين دخل، ولم يجدها، قال والدها بأنها خرجت للتوّ. انتظر حتى جلس الوالد، ونادى زوجته، في انتظار أن يبدأ رام بالموضوع المهمّ الذي جاء من أجله. عدّل رام جلسته، نظر جيداً في عيني الأمّ التي زاده ترقّبها خوفاً وتوتراً. وقال دون مقدّمات:" أنا أحبّ ليلى، أحبّها أكثر من أي شيء"، رشف من فنجان القهوة، وتابع: " أنا واحد من ملايين الأشخاص حول العالم ممّن يعانون من الاضطراب ثنائي القطب..اضطراب نفسي، يسبّب تقلبات مزاجية حادّة، تأتي على شكل نوبات، تؤثّر على جوانب كثيرة من حياتي..العلاقات الاجتماعية، والعلاقات العاطفية، تؤثّر على عملي، وعلى من حولي.." صمت قليلاً، قرأ وَقْع ما يقول في عيونهم، أراد أن يُكمل، لكنّه عجز، غيّر جلسته مرّة أخرى، رشف من قهوته مجدداً، أنقذه صوت الأب

الهادئ: " ابني..اهدأ..الطبّ تقدّم كثيراً، ولابد من علاج ما"، أتى صوت الأمّ مرتجفاً حين سألت: "أتعرف ليلى؟". نظر رام حوله، وكأنه يبحث عن شيء ما في تلك الغرفة الواسعة، "لا" هكذا قال، وقد أعاد نظره إلى الأرض، ثمّ أردف بخشوع: " لم أصب بنوبات منذ مدّة طويلة، أزور الطبيب باستمرار، وأواظب على أدويتي بانتظام..المرض قابل للسيطرة من خلال الأدوية، لكن؛ لا أدري، هو عَصيّ على التوقّعات، لا يمكن التنبؤ به؛ قد أبقى على ما أنا عليه أشهراً طويلة، وقد لا أجيب اتصالاتكم الأسبوع القادم.."

وهكذا أسهب رام بالشرح عن المرض؛ ماهيته، وجوانبه الإجابية، وأين توصّل العلم بدراسته، والمشاهير الذين يعانون منه (حازت هذه الإضافة على اهتمام الوالدين)، ثمّ خرج. طلب منهما أن يتحدثا مع ليلى، وأن يطلبا منها القراءة المعمّقة عن المرض، كان قد حسم الأمر بأنه لا يقوى على محادثتها وجهاً لوجه، مع أنه شعر بالارتياح لما قاله الأب، خصوصاً حينما قال: "الأمراض النفسية واقع، يا ابني، وأعتقد أن الحبّ الذي يجمعكما أقوى". عاد إلى منزله تلك الليلة، وانتظر اتّصالاً منها، انتظر أن تقول بأنها قرأت عن الاضطراب، وأيقنت أنه ليس دائماً سبباً للإخفاق أو التعاسة، وإنه قابل للسيطرة، ويفتح فضاءً واسعاً من الإبداع والفن والتألّق، كما يفتح أحياناً الحياة على اتّساعها؛ ليجلب الجمال والفرح والأمل. تخيّلها تقرأ عن الأدباء والفنانين والعظماء الذين عانوا ويعانون منه، أن تدرك أنه مرض كسائر الأمراض التي على الإنسان أن يصمد أمامها، ويقتلع النجاح من باطن فكّيها. انتظر كثيراً يومها حتى نام، واستيقظ عدّة مرّات خلال الليل.

***

أمسك فنجان القهوة ورشف منه رشفةً ثانيةً، نظر إلى المكان الذي خنقت فيه سيجارتها، وقد بدأ يمتلئ بالمدخّنين من جنسيات ومناصب مختلفة، يتحدثون، ويضحكون، ويتجادلون، وكأن أحدهم لا يعبأ بأن "ليلى"كانت هناك منذ بضعة دقائق. هذه الدقائق التافهة هي التي حالت دون أن يراها اليوم، كلّ هذا بسبب الاجتماع اللعين، الساعة العاشرة هو الوقت الوحيد الثابت لخروجها للتدخين، قد تنزل بعدها ببضع ساعات، وقد لا تفعل، ترك فنجانه نصف ممتلئ، ومشى ببطء في البهو الطويل، عاد منهزماً إلى مكتبه، تمرّ التفاصيل أمامه كقطيع من الخيول البرّيّة المتراكضة، تتصارع في عقله الصور والقُبل والضحكات، ..سوف يعود غداً، على الموعد تماماً، دون أيّ تأخير، كما يفعل منذ أشهر..

مونولوج

انتهث من الكتابة، فرحث كثيراً بالنص الصغير الذي اعتبرثه أجمل ما كتبث حتى الآن. لم تكترث إن كان ما كتبثه ملائماً للعالم الأزرق الذي قرّرث أن تشاركه بما أنهث للتو. عذلث جلستَها، وضغطث زر: "post"

" قد تنتهي الحياة بأشكال غريبة، مضحكة أحياناً. سمعتُ منذ فترة عن شاب قُتل في حديقة للحيوانات. لم يلدغه ثعبانٌ سامٌ، ولم يسقط في منطقة النمر الأبيض، كما جرى في الهند عام ٢٠١٤. هو ببساطة ولسوء حظه، ابتلع عدداً كبيراً من حبّات البوشار، في آنٍ واحد، سَدّ بسببها مجراه التنفّسي. قضى محملق العينين بالحيوانات المفترسة حوله، وهو يتذوّق موتاً مجنوناً بطعم الكراميل. هناك نقطةٌ تُحسَب لصالح الانتحار - لن يذكرها أحد (سويّ) أمامكم -وهي أن الانتحار يتيح لنا اختيار المكان والزمان الذي نلفظ فيه آخر أنفاسنا. نختار أغاني موتنا بعناية، واللباس الذي سوف نستقبل فيه عالمنا الجديد. قد نكتب رسالةً ما إلى مَن نحبّ، أو لمَن سوف يرميه القدر؛ ليكتشف جسدنا الهادئ قبل الآخرين. لا أحد يفضّل الانتحار، في النهاية، هو خسارةٌ لكلّ ما تحمل هذه الدنيا من أمل. لكن؛ هل بقي أمل؟ هذا ما أشعر به الآن. أختنق، أحاول جاهدةً أن ألتقط أنفاسي، يبدو جسدي مترهلاً، وأنا في عامي السابع والعشرين، بطيئاً عجوزاً أمام تسارع الأفكار والصور في رأسي. ما هذا الذي يُبقي فرحكم الأبله طوال هذه السنوات؟! ألا تحاول هذه الحياة جاهدةً تجريدكم من كل معاني السعادة منذ أعوامكم العشرة الأولى؟! ماذا عن أعوامكم العشرين الأولى؟! سعداء أنتم؟! أم أنكم كما تقول جدّتي: " عايشين من قلّة الموت"؟!

لم يبذل جهداً كبيراً في المحاولة. كان يُسقط أفكاره على لوحة المفاتيح، فتخرج كلمةً تلو الكلمة، مقطعاً تلو المقطع، حتى إنه وفي تمام الساعة الخامسة فجراً، كان قد أنهى الفصل الرابع من روايته الأولى، التي أطلق عليها اسم: "الدولاب".

لم ينم طويلاً، استيقظ كمَن يمشي في نومه، واتجه نحو حاسبه المحمول؛ ليقرأ ما كتب قبل بضع ساعات. لم يرغب في الأكل، أو حتى شرب القهوة، كما لو أن العالَم الصغير الذي غزل خيوطه بعناية ظلّ يناديه. تدور أحداث الرواية عام ٢٠١٣(أيْ منذ تسع سنوات مضت)، بطلتها فتاة في السابعة عشر من العمر تُدعى "لانا"، تنتمي إلى عائلة ميسورة الحال من محافظة السويداء (جنوب سورية). ولأن الكاتب لم يصف حتى الآن شكلها بدقّة أو شاعرية، بدت "لانا" فتاة عادية، تعيش التحديات التي عاشها مجتمعها في تلك الفترة التي غيرت ملامح البلاد. كان كلّ شيء في حياتها يبدو طبيعياً ومنطقياً، بالنسبة لشخصية خيالية من تلك المدينة؛ فهي التي تقيم في مكانٍ آمن نسبياً، تعيش قصّة حبّ مضطربة، محاطة بمحبّةِ مَن بقي من عائلتها، وبعض الأصدقاء الذين فضّلوا عدم الهجرة.

في إحدى أيام الصيف الحارّة، تحرّك "الدولاب" للمرّة الأولى دون سابق إنذار. بدأ بالانزلاق سريعاً، وهو يدور بسرعةٍ جنونية، انفجرت "لانا"، وصبّت غضبها على حبيبها الأشقر الذي سارع بالرد والصراخ. كانت نوبة من الغضب غير المبرّر، صحبها كمٌّ من الكلام البذيء.

أسهب "أوس" في وصف الانقلاب الذي كان بمثابة تغيّرٍ جذري في حياة شخصيّته "لانا". أنهى المقطع الأوّل بنقاش طويل ومُنهك بينها وبين عشيقها الذي بدا، وكأنه لم يعد يحتمل هذا التغيّر الصاخب، الذي بات تهديداً لاستقرار العلاقة. حمل الفصل الثاني تطوّرات مهمّة وشيّقة؛ بدأ بسعادة مفرطة تحتلّ كيان البطلة، تبعه نشاطٌ ملفت وأفكارٌ متشعّبة وغريبة، تنتقل عدواها إلى القارئ الذي سوف يجهل سبب هذا المزاج المتقلّب، حتى يضطرّ الكاتب للتدخّل هنا، مبتكراً أحداثاً، أو نقاشات، مثقلة

بالمعلومات الطّبيّة عن الاضطراب ثنائي القطب.

كتب أوس جملاً مقتضبة وحادّة، يصوّر فيها حياة المرضى التي تبقى تحت رحمة "الدولاب"، والسرعة التي يدور بها. أجرى الكاتب تعديلاتٍ طفيفة، ثمّ أغلق اللابتوب، ومضى خارج البيت.

***

في آخر ساعات الليل، عاد "أوس" أخيراً! كان يومه حافلاً بالأحداث و الانتصارات؛ انتصارٌ في لعبة البليياردو على مجموعة من الأصدقاء في البداية، ثمّ على بعض الغرباء، في وقتٍ لاحق. تلاه انتصارٌ كرويٌّ صادمٌ لكرواتيا على منتخب البرازيل (هو يشجّع منتخب فرنسا)، ثمّ الخبر الأسعد الذي ظهر على الشريط الإخباريّ في المقهى، فصرخ مُرحّباً به، بينما ساد الصمت من حوله. قوّات "الدفاع الوطني" تمكّنت - إذنْ - من "تحرير" قريةٍ تقع جنوب المحافظة، من سيطرة تنظيم مسلّح آخر، ينتمي إلى ذات المدينة، لكنه "مدعوم من الخارج"، كما قال أوس. هبّ أحد زبائن المقهى، الذي اتّضح أنه من مؤيّدي فصيل "رجال الجنوب" المهزوم لتوّه، وهجم مندفعاً كالثور؛ ليُهدي أوس آخر انتصاراته لهذه الليلة. عاد الأخير إلى بيته منتشياً بقميصٍ مشقوق، وابتسامةٍ مبهمة، كان يتمنّى لو أن الليل أطول بقليل.

كانت الرواية تشدّه إليها، تسحبه نحو تفاصيلها، وتُغرقه أكثر. تُبعده عن الطعام، وأحياناً الماء. لم يعد يرى سوى "لانا" أينما تلفّتَ حوله. بدت ملامحها، بعد أن وصفها مؤخّراً، رائعة. حتّى إنه ظنّ بأنه سمع صوتها في الليلة الماضية، وشمَّ رائحة جسدها المتعرّق بفعل الساعات التي قضتْها في سرير "جاد" في منتصف الفصل الثالث من الرواية. كما اشتمَ رائحة سريرها جيداً حين استلقتْ عليه بعد الاستحمام بالماء البارد. شعر كما لو أنه يعرفها جيداً، لا بل يغار عليها أيضاً. علّ هذا كان السبب خلف اختفاء جاد دون مبرّر بعد المشهد الجنسي في المقطع الثالث؛ حيث لم يظهر بعده أبداً.

يُعدّ أوس قارئاً نهماً؛ فهو الذي شبّ على صوت والدته، وهي تقرأ له الحكايات منذ أشهر حياته الأولى. لكن محاولات الكتابة الجادّة بدأت مؤخّراً، وغلب عليها الشعر. كتب قصائد كثيرة خلال الشهر المنصرم، وأضرم فيها النار جميعها. حتّى تلك التي أحبّ أحرقها في اليوم التالي. كان يعتقد بأن القصائد تفقد ألقها وروعتها سريعاً. كما لو أن لها "تاريخ

انتهاء صلاحية "، تغدو بعد تجاوزه مجرّد أحرفٍ عشوائية، يجهل حتى كيف ظنّ أنها تصلح؛ لتكون قصيدة. أما الرواية؛ فلها طعمٌ خاص، نشوة لا تشبه شيئاً. حين سأله أحد أصدقائه: "لماذا رواية ؟" أجابه أوس: "لأنني وحيد". لم يبذل مجهوداً يُذكَر حتى اللحظة في كتابة روايته، فجلّ ما فعله أن حرّك أصابعه؛ لتظهر الأحرف، فالكلمات، فالسطور، فالمقاطع. كلّما انتهى من الكتابة كان يعود في اليوم التالي؛ ليصحح بعض الأخطاء، ويرتّب الأفكار والأحداث التي كانت تتسارع في الرواية أحياناً بشكلٍ، يصعب فيه على القارئ مجاراتها. وكان كلّما أجرى تعديلاً في مجرى الأحداث، وجد نفسه في اليوم الثاني أمام مطبّ جديد.

يعيش أوس وحيداً منذ سنوات، قُتل أخوه الأصغر في انفجار، استهدف سوق المدينة. وتوفِّيت والدته عام ٢٠١٨ بعد أن تركت له "سوبر ماركت" طيّب السمعة؛ ليعتاش منه. لم يتزوّج، ولم يحبّ مرّةً خلال سنينه الثمانية والعشرين، أو هكذا قال على أية حال. كان لطيفاً جداً، خاصةً مع النساء، اشتهر بموهبته في الإصغاء الجيد، حتى لو كلّفه ذلك ساعات طويلة من هزّ الرأس والابتسام، أو إخراج الـ "واو" والـ"أوه" من فمه، كلّما آن أوانهما. ربّما تكون موهبته تلك هي التي جرّت به في "خانة الصداقة"، هذه الزاوية الزهرية اللون التي يُعدّ خروج الرجل منها إذا ما دخلها شبه مستحيل. لكن هذه الحال تبدّلت مؤخّراً، فمنذ أسبوع كامل، وهو يتردد على منزل "هبة" كلّ ليلة تقريباً. لم يعد الصديق المستمع الذي كان سابقاً. هو الآن أكثر تصميماً وإرادة، فاحت جاذبيّته في عالمها كعطرٍ صيفيّ؛ لتهز ركود بحرها بعد أن امتلكتْها الوحدة سنواتٍ، حتى ظنّتْ أن عبقها قد ضاع بين العلاقات المخفقة، وتلاشى بعيداً. هذا الشاب الوسيم الذي اختفى عنها لأكثر من عامٍ، يعود الآن بشراهة مراهق بعد أن اقتنع أخيراً - أو هكذا ظنّتْ - بصعوبة البُعد عنها. ها هو يعود بسِحرٍ مضاعف، وجاذبية لا تُقاوَم، وبثقةٍ، لا يملكها سوى مغنّي "الروك" على المسرح، أمام الآلاف من المعجبين.

رغبته العارمة، وأحاديثه التي لا تنتهي، وانفعالاته السريعة، وأفكاره المتشعّبة الغريبة أسرتْها تماماً، استمتعتْ بهذا الأوس الجديد، وشعرتْ أخيراً أن جسدها عاد فتياً طازجاً، يتمرّد حيناً، ويصبح مطواعاً ليّناً أحياناً أخرى. حتى أفكارها لم تعد متبلّدةً ونيّئة، حوّلها هذا الساحر إلى كتلة مشتعلة، لا تملّ النقاش والاختلاف والجَدَل، والضحك والبكاء، حتى صمتها أصبح بلون الضجيج.

ربّما يكون هذا كله ما أغمض عينيها عن الحقيقة، هذه السعادة التي غزتْها فجأة، ودون إنذار، لم تُنذرها بأن ثمّة خطباً ما، هل هذا أوس حقاً؟! بدأتْ تتساءل لاحقاً، أمتَعَتْها حالته الجديدة، حتى تمنّتْ لو أنها لا تنتهي. لكنّ الصخب الذي لا ينتهي، والأفكار المجنونة التي تحدّث بها أوس، والبعيدة عن شخصيته تمام البُعد، سرعان ما بدأت تُثير مخاوفها. طرح الكثير من الأفكار والآراء بانفعال واضح، آخرها كان الضرورة الملحّة لإنهاء الصناعة الورقية في العالم، نظراً للضرر الخطير الذي تُلحقه بالبيئة. بدا وكأنه سوف يتخذ إجراءات حقيقية لمحاربة هذه الصناعة. في أثناء نقاشاتهما، أظهر أوس الكثير من الغضب، قال لها ذات ليلة: " هبة، إذا كان الحصول على كيلو من الورق يحتاج أربعة أضعاف هذا الوزن من الأشجار، كم شجرة خضراء اغتيلت، إذنْ؛ كي أرصف أنا كلّ تلك الكُتُب في مكتبتي؟! "، ثمّ أردف بحنق:" كلّ الدنيا باتت رَقْمية إلا الكُتُب، ما نزلنا نكدّسها؛ لتضاجع بعضها، ويأكلها الغبار". لم يكن "أوس" يتحدّث بشكلٍ عاديّ، لو كان الأمر كذلك، لما شعرت هبة بغرابة الفكرة. لكنّه بدا غاضباً متحفساً بذيء الكلام، يريد التصرّف سريعاً دون انتظار، ولم يبدُ أنه قادر على التصرف بعقلانية أبداً. خافتْ هبة عليه، وللمرّة الأولى شعرتْ بأن هذا الماثل أمامها قد لا يكون الأوس الذي أرادتْ.

سحبته الرواية مجدّداً مذ دخل إلى المنزل. نادته "لانا" التي رآها آخر مرّة تقود سيارتها الزرقاء بسرعةٍ خيالية مبتعدة عن المدينة، لسببٍ لم يُذكَر في الرواية حتى الآن. تجاهل النداء مجدداً. لم يعد يقوى على الكتابة نهائياً، أوقف الفكرة كلها. أصبحت الكتابة عملية بطيئة وتافهة جداً قياساً بما كان يدور في رأسه. اتّضح أن "لانا" على الورق أصبحت مملّة وباردة كالثلج مقارنة بـ "لانا" التي يراها في داخله. ارتفعت الأصوات كثيراً، لم يعد يحتمل هذا الكمّ من الصراخ، وبدأ يفقد السيطرة. ازداد نشاطه لدرجة كبيرة، انقضّ على مكتبته، وبدأ يرمي الكُتُب على الأرض، بحث عن كيس كبير، وبدأ يعبّئ الكُتُب كلها هناك بسرعةٍ فائقة، وهو يلهث من التعب. بعد عمل استغرق الكثير من الوقت، ظهر "أوس" على سطح العمارة التي يسكنها، وبجواره أربعة أكياس سوداء كبيرة من الكُتُب التي قرأ على مدار السنوات الطويلة المنصرمة؛ رواياتٌ، وكُتُب ودراسات، ومجموعات قصصية، ودواوين شعرية، وكُتُب تعليمية. كُتُب الأطفال التي لطالما قرأتْها له والدته قبل النوم، وكُتُب أخرى كثيرة أهداه إياها الأصدقاء سابقاً..

وقف بنُبل مقاتل ساموراي، بشموخ جنديّ منتصر، سرعان ما ارتفعت ألسنة النار؛ ليرمي بداخلها الكُتُب؛ الواحد تلو الآخر بدايةً، ثمّ مجموعاتٍ من الكُتُب دفعة واحدة. رماها كأكوام القمامة؛ لتبتلعها النار، وراقب بلذّة انكماش الورق بفعل الاحتراق. صرخ عالياً بكلمات غير مفهومة، شعر بالنشوة، وكأنه نفّذ أخيراً ما فيه خيرٌ للعالم. في هذه الأثناء، وبينما كان أوس على يقين تامّ بمنطقية ونُبل ما يفعله، وبينما كان ينتظر أن يسارع الجيران لأن يحذوا حذوه، ويفعلوا المِثل بمكتباتهم، هجم رجال الأمن عليه، ورموه أرضاً بعنف، كان الجيران مجتمعين تحت المبنى يرجونه أن يتوقّف دون أن يسمعهم. أمسكه اثنان من رجال الأمن جيداً ريثما حاول الباقون إطفاء النار، وإنقاذ ما تبقّى من كُتُب. انتهى به الأمر في مركز الشرطة، ثمّ في مستشفى الأمراض النفسية المُنشأ حديثاً في مدينته الجنوبية.

***

بعد ثلاثة عشر يوماً، كانت المدينة التي اعتادت الحزن تفرح كطفلةٍ صغيرة؛ الشوارع تفيض بالمحتفلين الراقصين، وألعابٌ ناريةٌ لوّنت السماء بألوان متفجّرة، والسيارات شكّلت مسيراتٍ "عفويةٍ"، تضجّ بالزمامير والأهازيج. الأطفال أيضاً شاركوا في هذا الفرح الكرنفالي، فحملوا الأعلام البرازيلية، وهم يصرخون وسع الفضاء. لم يسترح المقاتلون المتحاربون في أثناء الاحتفال، كما كان متوقّعاً، فجاؤوا؛ ليحتفلوا على طريقتهم الخاصة التي كلّفت المدينة سماع آلاف الطلقات النارية الهائجة (فرحاً) هذه المرّة. كان الشباب والصبايا في حالةٍ من الهيستيريا، منتشين بنصرٍ لم يكن متوقّعاً، أوصلهم إلى نجمتهم السادسة في تاريخ كأس العالم لكرة القدم. وبينما ترقص المدينة كلها على وقع "السامبا" البرازيلي، كانت تمرّ السيارة السوداء التي تقلّ "أوس" عائداً إلى منزله، بصحبة خاله، بعد رحلة طويلة وشاقّة، قد تترك آثارها عليه مدى الحياة. رجع - إذنْ - مختلفاً ومُنكسراً، عادت له تفاصيل الفترة الماضية كلها، مرّت أمامه بكل ما حوث من صخبٍ، يشبه الاحتفال المجنون الذي يحصل خارج السيارة الآن، تذكّر بمشاعر متضاربة الليالي التي قضاها في فراش هبة، المشاجرات والضحك اللامنتهي، والأفكار والخطط والإبداع، تذكّر القمّة التي كان يعتليها وحده حتى تعثّر، وسقط.

لم يكن المستشفى سيئاً، كما كان متوقّعاً، كما أنه لم يكن لل"مجانين"، كما قيلَ عدّة مرّات. لكن تجربة دخول المستشفى ظلّت تؤلمه؛ لأنها غثّت

حجزه أكثر من عشرة أيام بعد أن اعتقد بأن حُرّيته مطلقة؛ لا تحكمها حدودٌ، ولا حواجز. عاد أوس - إذنْ - بوجهٍ شاحبٍ، وأربعة أنواعٍ مختلفة من الأدوية التي يجب أن يعتاد على الحياة معها. تختلط المشاعر في داخله بشكلٍ مؤلم، فهو لا يدري إذا كان الذنب ذنبه، ولا يعلم كيف سيواجه الذين تجمهروا يوماً تحت سطح البيت، راجينه أن يتوقف عمّا كان يفعل. الأصعب من هذا كلّه، الأقسى، كان عدم قدرته على تحديد مشاعره تجاه الفترة التي سبقث دخوله المستشفى. فتلك الحالة من الهَوَس (المينيا) سبّبت له مشاكل حقيقية، ماديّة واجتماعية، وبعضها لن يُصحَّح أبداً. لكنها - وفي المقابل - حقّقت له لذّةً خاصة، قلّة في العالم شعروا بها. إحساسٌ لا يُوصَف أبداً، يجهل حقاً إن كان يريد له ألا يعود.

أوقَف الخال سيارته أمام باب البيت، "أوس" - بدوره - لم ينتبه بأن الوقت قد حان للترجّل من السيارة، فقد كان غارقاً في التفكير بقصّة "لانا" التي لم تنته بعد، وسوف تصبح رواية مهمّة يوماً ما ..

ليس الليلة، لكن؛ قريباً

ماتت "كارولينا"، بعد أربعةٍ وعشرين عاماً فقط من اليوم الشتائي الذي وُلدت فيه. رحلت تاركةً خلفها الكثير من المُحبين المُخلصين الذين سوف لن ينسوها أبداً. ماتت "كارولينا"، أنهت حياتها في غرفتها؛ حيث أمضت آخر أيامها، نعم، انتحرت. على الجميع أن يعتادوا الحياة دونها الآن، وأن يكتفوا بذِكْرِها في الصلوات والقصائد. "أزمة قلبية"، كان السبب المُعلَن للموت، لكنْ كل فردٍ من العائلة امتلك تفسيراً لسبب الانتحار. الأب أكّد أن ابنته كابدت مشاكل حقيقية في علاقتها العاطفية الأخيرة، ولم تحتمل البُعد عن عشيقها. في المقابل، رجّح أخوها الأكبر "جيروم" أن يكون السبب إدمانها الكحولي. امتنعت "سارة" (الأم) عن النطق بأيّ كلمة، أما الجدّة؛ فقد أكدت أن حفيدتها كانت "مجنونة"، وأن لا داعٍ لإلقاء اللوم على أحد.

في زاوية الغرفة، تحت المعاطف المُتدلّية من الحائط، يجلس "آدم"، ويبكي بصمتٍ كشجرة، كلّما أزاح وجهه عن الحائط المُكتظ بصورها، تعود هي؛ لتشق طريقها إلى عينيه. دخل غرفتها قبل رحيلها بيومين، وجدها أخيراً مستيقظة، لكنها تظاهرت بالنوم فور دخوله، لم يرد إحراجها، فخرج دون أيّ إزعاج. كانت فرصته الأخيرة ليقول لها ما يريد، ليته كان يعلم!

وهو الآن في غرفتها مرّة أخرى، لكن؛ بعد موتها. كانت الغرفة هادئة جداً، كلّ شيء كما تَرَكَتْه؛ الوسائد في مكانها، والسرير غير مرتّب كما دوماً، وبعض الأوراق منثورة على الطاولة. ومن النافذة المفتوحة يدخل نسيمٌ حنون، هدأ قليلاً من رعشة آدم الذي انتظر ظهور أخته من خلف الستائر، أو الخزائن. التقط الأوراق، وبدأ يبحث عن أي شيء يقوده إلى أي شيء، بعض الفواتير والعمليات الحسابية البسيطة، وجد بينهم ورقة صغيرة، كُتب عليها بخط جميل: " ليس الليلة، لكن؛ قريباً". أعادها فوراً؛ حيث كانت، شعر بضيقٍ في الصدر، وخرج مُسرعاً.

في صالة الاستقبال، عددٌ من كبار السن الذين أتوا للقيام بواجب العزاء، يجلس معهم الأب والأخ الأكبر "جيروم". كانت الأم في هذه الأثناء وحيدة

في المطبخ، ترنو إلى الأرض منتظرةً أن تصمت الجذة قليلاً. جاء خمسة رجالٍ غرباء، يتشابه أربعة منهم في المظهر، كسائر العجائز في تلك المدينة المطلّة على البحر، لكنّ الدكتور"إلياس" كان مختلفاً؛ وقوراً ثقيل الصوت والصمت، يلبس معطفاً أسود، ويحمل في يده غليوناً كبيراً، لم يقرّبه من شفتيه أبداً. تعتلي رأسه قبعةً باريسيةً، فوق حاجبين أشيبين، يزيدانه وقاراً. بدت عليه ملامح عدم التصديق لرواية الموت بسكتة قلبية، حتى ولو لم يقلها صراحةً. شق آدم طريقه، وجلس بقربه، همس حينما انشغل الباقون بنقاشٍ سياسي: "كارولينا لم تكن مريضة، كارولينا انتحرت". حافظ إلياس على وقاره، التفت نحو الشاب، وقال، وخرجت الكلمات ببطء شديد: "كارولينا انتحرت، كما تقول، لكننا لن نستطيع الجزم بأنها لم تكن مريضة، للمرض أشكال عديدة".

- وجدتْ في غرفتها ورقة، كتبتْ عليها: (ليس الليلة، لكن؛ قريباً).

اختفت كلّ التعابير عن وجه إلياس، لم يستطع آدم لمس أي وقعٍ لكلماته على ملامح العجوز. صمت إلياس قليلاً، ثمّ التفت نحو الأب وجيروم مجدّداً وقال: " ليرحمها الرّبّ"، نهض مغادراً، وتبعه الرجال الأربعة.

"آدم" البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، أراد التعرّف على أخته مجدّداً، كما لو أنها حيّة. كان قد انتقل إلى مدينةٍ بعيدة منذ بضع سنوات، ولم يعرف عنها سوى التفاصيل التي كانت تنقلها له أمّه بعد انتقائها بعناية. كان يعرف الوقائع بعد حدوثها بأشهر، وأحياناً بشكلٍ مشوّه، فالأمّ تُخفي بعض التفاصيل، وتكذب بأخرى.

لم يعرف آدم مثلاً بأن أخته أنفقتْ خمسة عشر ألف دولار؛ لتشتري بعض الهدايا لعشيقها في سنتها الدراسية الأولى في الجامعة. علم بهذا الأمر بعد أسابيع. كان يجهل أنها اعتدتْ جسدياً على زميلةٍ لها، ما سبّب فصلها فصلاً دراسياً كاملاً. لم تكن "كارولينا" قريبةً منه، أو من باقي أفراد العائلة. لطالما اعتقد "جيروم" مثلاً بأنها انتهازية؛ لأنها كانت تُغرقه دون سابق إنذارٍ بحبها وقُبلاتها وصخبها وحكاياتها التي لا تنتهي، ثمّ يتلاشى هذا الاهتمام؛ ليصبح أخوها الاكبر مجرّد جسد إضافي في هذا المنزل المزدحم بالأقارب.

لم يرغب بالحديث عنها أحد، بدا الإرهاق واضحاً على الأب الهَرِم. خذلتهم كارولينا كما قال، وتركتهم؛ ليواجهوا عيون الناس المُشككة

والمُتسائلة. طلبت "سارة"، ألا يتحدّث عن ابنتها أحد بحضورها. "جيروم" - بدوره - استسلم للحزن، وظلّ وحيداً بين جدران غرفته. أما الجدّة؛ فلم تتوقّف عن نعت حفيدتها بالمجنونة ومدمنة الكحول. أراد أن يتحدّث عن أخته، يتذكّر معهم جمالها ومتاعبها، المواقف الطريفة التي كانت تلاحقها، وتلك اللحظات التي شعروا بها، وكأنهم يكرهونها. كانت لابد بحاجة للمساعدة، ولم يلتفت إليها أحد"المراهقة صعبة المزاج"، كما كان يسقيها "جيروم". كانت بحاجة لهم جميعاً، لكنهم اكتفوا بإطلاق الأحكام، وتقييم سلوكها، من وجهة نظرهم. وها هم بعد رحيلها يغرسون رؤوسهم في التراب كالنعام، ويكذبون حتى في طريقة موتها.

في طفولتها، كانت كارولينا حادّة الذكاء، أحبّها الجميع، بالرغم من مشاكساتها، عُرف عنها سرعة الانجراف خلف عواطفها. حين كبُرت، بدث عليها بعض التغيرات، ظنّ الجميع بأنها تقلّبات تخصّ المراهقة. اختارث كارولينا لاحقاً أسوأ شابٍ في المدينة؛ لترتبط به. يعتقد الجميع أن "إبراهيم" (عشيقها السابق) كان السبب وراء توجّهها لتعاطي المخدّرات، كما عُرف عنه الإدمان الكحولي. لم يستطع أحد إنهاء هذه العلاقة حتى أنهاها إبراهيم بشكل صادم للجميع، وحين جزب "آدم" التواصل معه؛ ليعرف السبب وراء الخلاف، ردّ إبراهيم: " أختكَ مجنونة".

خرج آدم واثقاً من وجهته، مشى الشوارع بهدوءٍ حذر، ولم يتوقّف عن التفكير للحظة واحدة. لماذا قَتلث كارولينا نفسها ؟ تلك السمراء الجميلة، لماذا اختارت الرحيل؟حدّث نفسه مطوّلاً، أعاد سرد كلّ التفاصيل التي يذكرها عن أخته. فَتح له الباب، ولم تبدُ عليه علامات الاستغراب من هذه الزيارة، الدكتور"إلياس" يملك قدرةً عظيمةً على إخفاء تعابير وجهه، والتحكّم بنبرة صوته؛ لتبقى هادئةً كليلة صيف.

- أتيتَني تبحث عن الأجوبة، والجواب لم يكن يوماً سوى معها، دُفن الجواب مع كارولينا.

- هل كان من الممكن أن نمنع ما حصل؟

- قد فات الأوان الآن، لن ينفعك جلد الذات، ولا تحمّل نفسك ما لا تقوى عليه.

-ما الذي قد يدفع صبية مثلها لأن تُنهي حياتها؟

- لا نعرف عن كارولينا سوى ما أرادث إظهاره، هناك عوالم خفيّة، زارثها

وحيدة، قد يظهر الانتحار أحياناً بوصفه الطريق الوحيد نحو الخلاص.

نهض إلياس ببطء، وسكب لآدم كأساً من النبيذ. جلس على كرسيّه الهزّار، وأردف قائلاً: "هناك عالمٌ مبهم، لا يعرفه سوى مَن ترذد عليه مراراً، لا أشجار هناك، ولا أنهار، ولا بشر، يا بني، لا أصوات سوى فحيح الأفاعي، لا لون سوى السواد، عالمٌ قاتمٌ، لا يشبه شيئاً عايشته من قبل. هناك تغدو كقطٍ مطرودٍ جائع، لا صديقَ ينتشلك من قاع التراب، ولا أغنية تدخل الروح. هل جرّبتَ أن تؤذي نفسك يوماً؟ تجرح إصبعك بشفرة حلاقة عن عمد، أو تصعد جبلاً شاهقاً، وتنظر إلى القاع الذي سوف يستقبلك جسداً محطماً؟ هل لك أن تتخيّل ما الذي يدور في خلد الشخص الذي يُقدم على الانتحار حتى يرى في هذه النهاية خلاصاً أقلّ ألماً من المُضي في هذه الحياة ليومٍ إضافيٍ واحدٍ؟ "

شرب إلياس كأسهُ دفعةً واحدة، وقال بينما ترنو عيناه إلى الحطب المتآكل في المدفأة "عد إلى بيتك الآن، يا آدم، وتعال كلّما أردتَ ذلك".

كان البيت يعجّ بالغرباء، دونما التفات، صعد آدم السلالم الخشبية نحو غرفة أخته التي لم يدخلها سواه، استلقى على سريرها، وغرز أنفه في وسادتها؛ ليشتمّ ما تبقّى من عبق الجسد الذي استلقى هنا سنواتٍ طوال. بكى كثيراً، بكى بصوتٍ عالٍ حتى شعر بجسده يرتجفُ من البرد، ناداها باسمها، وهو ينظر إلى تفاصيل الغرفة التي ماتت ضجراً بعد رحيل صاحبتها. ما تزال النسمات تدخل خلسةً؛ لتداعب شعره الطويل. استند على حافة السرير، ومشى ببطء نحو أوراقها المبعثرة، وجلس على الطاولة، وتناول الورقة التي كتبث عليها كارولينا "ليس الليلة، لكنْ؛ قريباً"، ضمّها إلى صدره، وزحفتْ دمعة صغيرة على خدّه ببطء، ثمّ قال، وقد خرج صوته مرتجفاً متقطّعاً :" ليت تلك الليلة لم تأتِ، يا حبيبتي، ليتها لم تأتِ".

تألمت، بكت، صرخت، شعرت بالشوق يخترقها، فحاولت مرّةً أخرى، ولم يُجب. انتظرت عشرة دقائق، وحاولت مجدّداً دون جدوى. مضت بضعة أيام، ولم يُجب بعدُ على أي من اتّصالاتها، أو رسائلها. عادت بها الذاكرة إلى الوقت الذي قيل لها فيه بأن العلاقة سوف تكون صعبة، لكنها تحبّه، تحبه بصدق. ولن تقبل بأن تبتعد عنه، بسبب اكتئابه الذي لا يملك قوّة السيطرة عليه. تذكّرت حين أمضت ساعات تقرأ عن الاكتئاب، وكيف يسرق ضحيّته من أحضان الأحبّة. حاولت مجدّداً، بعثت له الرسائل النصّية، أكّدت بأنها فقط تريد أن تطمئن عليه، وأن رسالة واحدة تكفيها، تعيدها للحياة مجدّداً.. دون جدوى..هل قتل نفسه؟! هل هو الآن ممدّدٌ وسط بركة من الدماء الساخنة المتدفّقة من شرايينه؟! لم تعرف تماماً متى هزمها النعاس، لكنها استيقظت مرّات عدّة خلال الليل.

في هذه الأثناء، كان هو؛ المعشوق، يجلس على أريكته الواسعة، يتابع مؤتمراً صحفياً مُتلفزاً للسيد بان كي مون. يشرب الشاي، ويلتهم صحناً واسع القاع من المكسرات المتنوّعة. لم يكن مكتئباً..نهائياً، كان فقط رجلاً يتهرّب من امرأة، لا يحبّ ..

شكر خاص

لمرضى الاضطراب ثنائي القطب، وذويهم الذين أذِنوا لي بالدخول إلى عالمهم محكم الإغلاق، وفتحوا لي أبواب الذكريات والحكايا.

للمرضى من فرسان موقع يوتيوب، الذين عملوا على تحطيم هالة الجهل حول الأمراض النفسية عبر مشاركة حالاتهم وقصصهم أمام الملايين حول العالم.

للأخصائية النفسية خلود هنيدي.

والشكر الكثير للكاتبة والصحافية نور أبو فراج لما لها من فضل في إنجاز هذا الكتاب.